

نوابغ الفكر العربي

٢٨

البهاء زهير

بقلم الدكتور عبد الفتاح شلبي



دار المغارف بمصر

Sp
89
3
R

البهاء زهير

نوابغ الفكر العربي

٢٨

الجهاد زهير

٥٨١ - ٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور عبد الفتاح شلبي

« وما زال شعري فيه لروح راحة »

« ولقلب مسلاة » ولهم مصرف »

الجهاد زهير

الطبعة الثانية



دار المغارف بمطز

الفصل الأول

عصر البهاء زهير

١ - الحياة السياسية

عاصر البهاء زهير دولة بني أيوب ، وصمدراً من دولة المماليك البحرية يبلغ ست سنوات .

١ - عهد بني أيوب ونظام الحكم فيه :

قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية الشيعية ، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي ببغداد ، ولقب الأيوبيين أنفسهم بالسلاطين ، وحرصوا على أن يبارك الخليفة العباسي سلطنتهم ؛ حتى تتخذ دولتهم الصبغة الشرعية ، فكانت خلع الخليفة من الفرجية السوداء ، والطوق الذهبي ترد إلى السلطان الأيوبي ، ويحصل بها في مشهد عظيم .

وقد أخذ الأيوبيون بنظام الوراثة ، فأوصى صلاح الدين أن تقسم دولته على أولاده الثلاثة من بعده ، ولم يأخذ المماليك بنظام الوراثة هذا ، بل كان يتولى الحكم أشجعهم وأقدرهم ، حتى إذا كان السلطان يبرس أعاد نظام الوراثة كما كان في عهد الأيوبيين .

وبلى وظيفة السلطان في المرتبة : وظيفة « نائب السلطان »^(١) ، وهي وظيفة جديدة لم تكن في الدولة الفاطمية ، وقد دعت إليها الظروف الحربية التي اقتضت أن يتغيب السلطان عن الديار المصرية ، فكان لا بد من نائب له ، بصرف أمور الدولة في أثناء غيابه ، وقد كان من نواب السلطان صلاح الدين - أخوه الملك العادل ، وابن أخيه تقي الدين عمر ، وبهاء الدين قراقوش .

(١) « الحركة الفكرية في مصر » لعبد العظيم حمزة : ٤٨ .

وكان هناك كذلك نواب للسلطان يتوبون عنه في القضاء بين الناس ، وقد رتب السلطان الصالح نجم الدين أيوب نواباً بدار العدل يجلسون لإزالة المظالم ، فهرع الناس إليها من كل جانب ، ورفعوا ظلاماتهم : فكشفت ، واستراح السلطان من وقوف الناس إليه ^(١) .

كما فوض الصالح أيوب قضاء مصر والوجه القبلي لابن عبد السلام ^(٢) . ومن الوظائف الدينية التي لها أهميتها — بعد وظيفة قاضي القضاة — وظيفة المحتسب ، وكان للمحتسب في الدولة الأيوبية سلطة واسعة يراقب الناس في الأسواق والطرق والمساجد والفنادق ، ويرعى المعروف والفضيلة ، ويحول دون المفاسد والمنكرات ^(٣) .

وكان التغلب على الفرنجة في الحروب الصليبية ، هو شغل الأيوبيين الشاغل ، ومن أجل ذلك لم يكن لدى هذه الدولة متسع للأخذ بمظاهر الخلفاء الفاطميين ورسمهم وتقاليدهم وأبهمهم وتحجيجهم عن الناس ، كما صرفت الحروب الأيوبيين عن أكثر ما كان للفاطميين من نظم ، واكتفوا بالضرورة منها .

وقد اتخذ السلاطين الأيوبيون لأنفسهم وزراء يعاونونهم ، واشتهر في دولتهم عدد من هؤلاء الوزراء عرفوا بالفطنة وحسن السياسة ، فمن وزراء صلاح الدين الوزير العظيم عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل ^(٤) وبهاء الدين قراقوش . . . وأولهما كان أديباً وصاحب مذهب في النثر الفني . . . وأما بهاء الدين قراقوش فهو الذي أتم بناء سور القاهرة وهدم لبنائه جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة في مكان السور . . . فاتهم بالاستبداد ولقب بهاء الدين بقراقوش أي «الطير الأسود» . . . ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم

(١) « السلوك » : ٣٠٧/١ .

(٢) « السلوك » : ٢٠٩/١ .

(٣) « المثل السائر » لابن الأثير : ٢٢٧/١ ط القاهرة .

(٤) « مخطوط المقرئ » : ٣٦٣/٣ .

بالاستبداد والعسف . وقد ألف الأسعد بن مماتي كتاباً سماه « الفاشوش في أحكام قراقوش ^(١) » .

ومن وزراء العادل « ابن النحال » ، وكان رجلاً نصرانياً ثم أسلم . وصفي ، الدين بن شكر ، وكان يقال له : الصاحب . ويقول المقرئ في خطبته : إنه لم يلق بقلب الصاحب وزير قبل صفى الدين هذا ... وقد حدثت جفوة بين العادل وصفي الدين فأقاله من منصبه . ولما مات العادل استوزر ابنه الكامل « ابن شكر » مرة أخرى ، ولكنه سلك سبيل الباغين والطغاة فصاحبه الكامل ، وأحاط بجميع موجوده ، وقبض عليه وعلى أولاده ، واكتفى الكامل بإخوة له من الرضاع ، فاتخذهم مستشارين يرجع إليهم في أموره ^(٢) .

وأبقى الأيوبيون على بعض دواوين الفاطميين وموظفيها ورؤسائها . . . وكانت القلعة هي المقر الرسمي الذي تدار منه شئون الحكم والسياسة . . . وظلت كذلك إلى أواخر العهد المملوكي .

فن الدواوين التي أبقى عليها الأيوبيون ديوان الإنشاء . . . وديوان الجيوش . وكان من نظار هذا الديوان : جمال الدين بن مطروح . . . وديوان الأسطول ومن نظاره الملك العادل أخو صلاح الدين ، وديوان بيت المال ومن نظاره في أوائل الدولة الأيوبية الأسعد بن مماتي .

والمتتبع لتاريخ الأيوبيين يجد أن هناك وظائف أخرى ، فهناك الحجاب وقواد الأسطول ، وهناك أمير الطبليخانة ، وهناك أمراء جاندار السلطان الذي يستأذن السلطان في استقبال رجال الدولة ، وأعلى مراتب الأمراء : أمير مقدم ألف .

وبجانب هؤلاء مشرفون : فمنهم من يراقب الأمور المالية عامة في جهة معينة من قبل السلطان أو الأمير ، ومنهم من يراقب المطبخ السلطاني والأطبخة به .

(١) « تاريخ مصر الحديثة » لجورجي زيدان .

(٢) « السلوك » : ٢٢٠ / ١ .

وقد ساد نظام الإقطاع في مصر في عهد الأيوبيين ، وكان السلطان يقطع كبار الأمراء والقواد إقطاعات يستغلونها : ويقوم مقام الرواتب لهم ، وقد تكون هذه الإقطاعات بلداً أو أكثر ، أو سوقاً أو ربعا . . .

هذه صورة عامة لنظم الحكم ، والتكوين السياسي في عهد هذه الدولة الأيوبية . وقد خضعت أكثر هذه النظم للطابع الذي اتسمت به هذه الدولة ، وهو الطابع العسكري الذي كان ممثلا في نضالها ضد الفرنجة في الحروب الصليبية .

ولقد دعت الحروب الصليبية إلى ضروب من النشاط الحربي في العصرين الأيوبي والملوكي الأول : فقد عنى صلاح الدين الأيوبي بالأسطول ، وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول ، وعين له نواحى متعددة من الخراج ، كما زاد في إقطاعاته ، كما عنى بتحصين القاهرة حيث أمر ببناء قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر ، وكان السلطان يعنى ليلا ونهاراً بترتيب أحوال الجنود ، وقد رصد صلاح الدين الأيوبي أموالا ضخمة لعمارة سور دمياط ، والنظر في السلسلة التي بين البرجين ، وإعادة سورتيس كما كان في القديم ، وأمر بإنشاء الخرايق لنقل الجنود إلى الثغور البحرية .

وقد أشاع بيبرس حياة الجند والصرامة في عهده فكان إذا ما عاد من الحرب استعرض جنوده ، واشترك هو وابنه في مناوراتهم ، وفي المعارك الكبيرة كان المتطوعون يتزاحمون على التطوع مظهرين ضروب البسالة في المقاومة الشعبية حتى كان عددهم يفوق عدد الجند ومن في الخدمة^(١) .

هذا وقد وقف الأدباء بجانب الجنود في المعركة يستنجدون بشعرهم ونثرهم ويحرضون على القتال ، ويمجدون الأبطال ، ويسجلون المعارك ، ويتوعدون الأعداء ، ويتغنون بالنصر المبين ، وينشدون أهازيج الحماسة فآخرين .

(١) « النجوم الزاهرة » : ٥/٨ .

ب - ظهور المماليك :

في أواخر الدولة الأيوبية ، استكثر الصالح نجم الدين أيوب من المماليك ، وقد عرفوا بذلك الاسم لأنهم في الأصل أرقاء ، وجعلهم الصالح معظم عسكره ، وكون منهم فرقة الحرس السلطاني ، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه ، وأنشأ لهم قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط مصر ، وأسكن بها ألف مملوك مما هم بالبحرية لسكنائهم بهذه القلعة على (بحر) النيل . وقد صار هؤلاء المماليك النقوذ في الحكم والبحيش وشئون الدولة والسيطرة على المرافق العامة ، مما أدى بهم إلى الطمع في الاستقلال ، وتولى زمام الأمر . . . وكان منهم شجرة الدر ، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك . . .

وبعد موت الصالح أساء ابنه تورانشاه الظن بالمماليك ، فأعرض عنهم ونوعدهم وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع ، وضرب رموسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد منهم باسمه ، فنفرت قلوب البحرية منه ، واتفقوا على قتله ، فضربه بيبرس البندقداري بالسيف ، فتلقاه تورانشاه بيده فبانت أصابعه ، وأخذ يصيح : جرحني البحرية ، والله لا أبقيت منهم بقية ! ! ، فقال البحرية بعضهم لبعض « أجهزوا عليه وإلا أبادكم » فدخلوا عليه بالسيوف ، ففر المعظم إلى أعلى البرج ، وأغلق بابه ، فأضرموا النار فيه ورموه بالنشاب ، فألقى نفسه من البرج هارباً إلى البحر فسبحوا خلفه في الماء وقطعوه بالسيوف قطعاً ، حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً^(١) .

واتفق المماليك على إمامة شجرة الدر سلطنة على مصر التي تزوجت من عز الدين أيلك التركماني ، فسلبها كل سلطة ، فانتصمت لنفسها بقتله ، فقتلها ابنه المنصور انتقاماً لأبيه ، وتولى الأمر من بعده ، وأعقبه على الملك سيف الدولة قطز . . . الذي كان له جهاد مذكور في رده طغيان التار^(٢) .

(١) « السليكة » : ١ / ٣٦٠ .

(٢) « السليكة » : ١ / ٤٢١ .

٢- الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كانت حياة الدولة الأيوبية حياة صرامة وجدّ ، إذ شغلت بدوء خطر الفرنجة . . . ومع ذلك فقد كانت هناك مناسبات يفرغ فيها الملوك والعامّة إلى ألوان من الابتهاج والسرور ، تقام فيها التزيّينات ، وتعقد الاحتفالات : فإذا ما وردت خلع خليفة ببغداد إلى السلطان خرج قاضي القضاة ، والشهود والمقرّون ، والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة ، وزينت البلاد ، وتضرب نوب الطبلخاناة^(١) بالباب الناصري ثلاث مرات في كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب الغوري ، ويركب السلطان بالخلع في طريق قرشت بالبسط المزركشة .

كذلك كانت الأفراح تعم إذا ما عقدت معاهدات الصلح بين المسلمين والفرنجة ، ويكون يوم الصلح يوماً مشهوداً يشمل الفرّح فيه الطائفتين لما نالهم من طول الحرب أو القتال ، فتختلط عساكر الفرنجة بعساكر المسلمين ، ويرحل جماعة من هؤلاء إلى مدن الفرنجة ، ويدخل خلق عظيم من الفرنجة إلى بلاد الإسلام زائرين آمنين^(٢) ، ويتبادل ملوك الفريقين الهدايا والألطاف ، وفقد أرسل ملك الفرنجة إلى الملك الكامل هدية سنّية فيها عدة خيول ، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر ، فتلقاها الكامل بالقرب من القاهرة بنفسه . وجهاز الكامل ملك الفرنجة بهدية من تحف الهند والصين والعراق والشام ومصر والعجم وفيها سرج من ذهب ، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية^(٣) . كما كانوا يحتفلون بالنصر ، فتدق البشائر في طول البلاد وعرضها ، وتمد الأسعطة السلطانية ، فتتال منها طبقات الشعب ، ويكون اليوم يوم فرح وسرور ،

(١) الطبلخاناة : فرقة الموسيقى السلطانية ، وتصبّب السلطان في الأسفار والحروب (صبح الأمل : ٢٨/٤) .

(٢) « البرك » : ١١٠/١ .

(٣) « البرك » : ٢٢٣/١ .

وترد قصائد الشعراء مهنته بالانتصار ، وتوزع الهدايا والعطايا والهبات ، وتنثر على العامة السراهم والدنانير^(١) .

ومن المواقب التي عني بها الأيوبيون والمماليك موكب الاحتفال بكسر الخليج فيكثر المتفرجون ، وتردحم الغوغاء ، ويشترك فيه السلطان والأمراء والناس جميعاً .

وكان النوروز القبطي من جملة المواسم بمصر ، تعطل فيه الأسواق ويقل فيه سعي الناس في الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسأهم^(٢) .

وفي آخر شعبان كان قاضي القضاة يركب لرقية الهلال^(٣) ، وفي العيدين يحضر السلطان الصلاة والخطبة ، ويشمل الأمراء ، وأرباب العمام ثم يخلعه ، ويقدم سباط توسعت الهمة فيه ، فيؤكل ما عليه ، ثم تسقى الأشربة الحلوة ، والأفاويه الطيبة بمياه الورد المبردة^(٤) .

كذلك كان يوم عاشوراء من أيام السرور التي احتفل بها الأيوبيون يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسطون في المطاعم ، ويصنعون الحلوى ، ويتخفون الحديد ، ويكتحلون على عكس ما كان عليه الفاطميون .

وفي أعياد النوروز ، وكسر الخليج خاصة يتجاهر الناس — بالمتكرات — ويتجمع المؤنثون والفاسقات ، وتشرب الخمر في الطرقات ، ويتراجم الناس بالبيض ، ويتصافعون بالأنطاع .

وقد كانت الحياة مزيجاً من هدى ومحون ، وطاعات ومعاص ، ففي عهد صلاح الدين كثرت بيوت المزر^(٥) بالإسكندرية ، فهدم منها مائة

(١) السلوك : ٢١٠/١ - ٢١٢ .

(٢) السلوك : ١٣٧/١ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٢ .

(٤) مخطوط المقرئ : ٢١٠/٢ - ٢١١ .

(٥) نوع من البعة يصنع من الدرة أو الشعير أو الحنطة .

وعشرين بيتاً ، وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر ببلداته ، وفوض الأمور إلى وزيره ، ثم أقبل على المعاصي ، وأقبل على الطاعات ، ولبس الحشن من الثياب ، وشرع في نسخ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه ، وجالس الفقراء ، والفقهاء ، وصام النهار ، وقام الليل^(١) .

كان كل هذا في الوقت الذي رعت فيه الدولة الأيوبية طبقة المصالحين من الفقراء المتصوفين ، فبنى لهم صلاح الدين الأيوبي ، خاتمه ، ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبنى لهم حماماً بجواره ، فأعفاهم من مذلة الكسب ، وفرغوا للعبادة آمين .

ووقف السلطان صلاح الدين الأيوبي ناحية نقاة بقوص ، وثبت ناحية سنديس من القليوبية على أربعة وعشرين خادماً لخدمة الضريح النبوي الشريف^(٢) .

وسار المماليك على سنة بني أيوب ، وأكثروا من بناء الخوانق ، ومكنهم من ذلك ما كان لديهم من وقت فسيح ، وما كانوا عليه من الغنى والثراء .

* * *

وقد تأثرت الحياة الاقتصادية أعظم التأثير بالنيل ، فهو إن زاد كان الحصب وكان الثناء ، ورخصت الأسعار وعم الرخاء ، وإن نقص كان القحط والغلاء والبلاء والجوع ، وقد توقف النيل عن الزيادة في عهد الدولة الأيوبية ، فأكل الناس القحط والكلاب ، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع .

وقد واجه الأمراء والملوك هذه المجاعات ، وخففوا من وقعها ، فضربوا على أيدي التجار ، ومنعوا الاحتكار ، ووزعوا الفقراء على الأمراء : فأمر المائة يطعم مائة ، وأمر العشرة يطعم عشرة وهكذا .

(١) « السلوك » : ١١٩/١ .

(٢) « السلوك » : ٥٧/١ .

وكانت الزكوات تجمع وتفرق في مصارفها ، وأخذت الزكاة من البضائع وعلى المواشى والنخل والخضراوات^(١) .

واهتم الأيوبيون بالزراعة وتربية الماشية كالأبقار والأغنام ، وقد كان من الغلات المشهورة في عهدهم : القمح ، والشعير ، والفول ، وقصب السكر ، والنخيل ، والرمان ، والقطن ، وقد أقيمت على هذه الحاصلات ضروب من الصناعة كغزل القطن ونسجه ، وصنع أثاث المنازل ، واتخاذ الملابس من الصوف والقطن والحريز ، وصناعة الحلوى التي كانت لها منزلة في الأسمطة السلطانية التي تمد في الأعياد ، ويبيعت منها مقادير كبيرة إلى منازل الوزراء وكبار رجال الدولة^(٢) .

كذلك أنشأ الأيوبيون أسطولا لنقل المتاجر ، وكان أكثر تجارتهم مع بلاد النوبة ، وبلاد الشرق الأوسط ، وبحر الروم ، ومن التجارات الراجعة في ذلك العصر تجارة الرقيق الذين كانوا يؤلفون جزءاً من جيش الخلافة ، وكانت قوص مركزاً مهماً للتجارة تمر بها القوافل التجارية الذاهبة إلى البحر الأحمر ، والراجعة منه ، ونهضت التجارة واتسع نطاقها بعد أن أمن صلاح الدين طريق الشرق التجاري بانتصاره على الصليبيين في الشام^(٣) .

وفي ظل من النشاط الاقتصادي زادت حركة البناء والتعمير ، فقد عهد صلاح الدين إلى وزيره الأمير بهاء الدين في أن يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها ، فأنفذ بهاء الدين ما عهد إليه بهمة ونشاط ، فهدى الطرق ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، والسلود ، واستخدم لذلك حجارة بعض الأهرام الصغيرة التي كانت تحيط بأهرام الجيزة ، وأنشأ طريقاً يمتد طويلاً على الضفة النيل سهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى ، ووضع أساس قلعة الجبل عند الطرف الشمالى من جبل المقطم وعلى سفحه وما تزال آثارها باقية إلى اليوم ، وتعرف

(١) « السلوك » : ٤٤/١ - ٤٥ .

(٢) « مخطط المقرئى » : ٢١٠/٢ - ٢١١ .

(٣) « معجم البلدان » لياقوت : قوص .

بقلعة الجبل أو قلعة القاهرة .

وجعل بهاء الدين في القلعة بئراً عميقة تمتد الجنود بالماء تسمى بئر يوسف ،
ويظن بعض العامة أنها سميت بذلك نسبة إلى يوسف الصديق بن يعقوب ،
والصحيح أنها منسوبة إلى يوسف صلاح الدين بن أيوب .

كما ابنتى بهاء الدين صوامع كبيرة في القسطنطينية لحزن الحاصلات ، ولما
فرغ من ذلك أخذ يهتم بإتمام سور القاهرة ، فبناه سوراً ضخماً عظيم الاتساع
يحيط بالقاهرة والقلعة ، وبنى قلعة المقس ، وهي برج كبير جعله على النيل
بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان .

كما بنى الأمير فخر الدين جهار كس قيسارية بالقاهرة ، وهي التي قال عنها
التجار الذين طافوا بالبلاد : لم نر في شيء من البلاد مثلها في حسنها وعظمتها
وإحكام بنائها ، وقد بنى فخر الدين بأعلاها مسجداً كبيراً ، وربعاً معلقاً .

وكان بالقاهرة - في ذلك الحين - دار تسمى دار التفاح تجاه باب زويلة
نزد إليها القواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت في بساطين ضواحي القاهرة^(١) ،
وقد شرع الملك الكامل سنة ٦٢٨ هـ في حفر النيل وعمل فيه بنفسه ، وعمل
معه الأمراء والجنود ، واستمر الماء فيها بين مصر والروضة لا ينقطع في زمن
الاحتراق ألبته .

وكان الملك الكامل عند زيادة النيل يخرج بنفسه ، ويشرف على حراسة
الجسور ، ورتب في كل جسر من الأمراء من يتولاه ومتى اختل جسر عاقب
متوليه أشد العقوبة ، فعمرت أرض مصر في أيامه عمارة زائدة . . .^(٢) وهو الذي
بنى مدينة المنصورة تخليداً لانتصاره على الصليبيين . . .

(١) « السلوك » : ١ / ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢٤١ - ٢٤٨ .

٣ - الحياة الثقافية

نشطت الحياة الثقافية في عهد الدولة الأيوبية والعصر المملوكي ، وربما كان لهذا الاتصال الطويل بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية أثر في هذا النشاط .

وكان ملوك بني أيوب يحبون العلم ، ويحتفون بالعلماء ، ويجالسونهم ويسمعون منهم ، فهذا صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يجالس المشايخ من أهل العلم ، وكان يقف صادر الإفرنج على الفقهاء ، كما وقف عليهم المضرائب التي كانت تفرض على تجار الإفرنج الواصلين بالمتاجر من بلادهم إلى ميناء الإسكندرية ، وسمع الحديث على الحافظ أبي الطاهر أحمد السلفي ، كما قرأ الموطأ على الفقيه أبي الطاهر بن عوف ، وقرأ عليه جزء من الحديث بين الصفيين وهو على ظهر فرسه ^(١) .

وقد سمع العزيز عماد الدين بن صلاح الدين (ت ٥٨٩ هـ) - الحديث من السلفي وابن عوف ، وحدث ^(٢) ، كما سمع الملك العادل منهما ، وكان يحب السنة ويكرم العلماء ، وله صنف الإمام فخر الدين الرازي كتاب « تأسيس التقديس » يعث به إليه من بلاد خراسان ^(٣) .

وكان الملك المنصور ناصر الدين (ت ٦٢٢ هـ) إماماً مفتياً في عدة علوم ، وله شعر جيد . وكذلك كان الملك الأفضل على بن صلاح الدين ^(٤) .

ولم يقتصر هذا النشاط على علوم الشريعة واللغة ، بل تعدتها - بقدر - إلى الرياضة ، والحكمة ، والهندسة ، قالوا : « ولما رحل إمبراطور الفرنجة إلى عكا وكان عالماً متبحراً في علم الهندسة ، والحساب ، والرياضيات - بعث إلى الملك

(١) « السلوك » : ٤٢/١ .

(٢) « السلوك » : ٤٢/١ .

(٣) « السلوك » : ١٩٤/١ .

(٤) « السلوك » : ٢١٦/١ - ٢١٧ .

الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى - المعروف بتعاسيف - فكتب جوابها^(١) .

وجرت بين يدى تورانشاه (ت ٦٤٨ هـ) المباحثات والمناظرات فى أنواع من العلوم وكان قد مهر فيها ، وعرف الخلاف والفقه ، والأصول ، وكان جده الملك الكامل يحبه ليله إلى العلم ، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة ، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه ، ولازم تورانشاه الاشتغال بالعلم إلى أن برع^(٢) .

وكانت زيارة سلطان مصر إلى الشام فرصة يحسن فيها إلى الناس ، ويخلع على الأعيان ، ويتصدق على أهل المدارس والربط . . . واقتدى المماليك بالأيوبيين فى رعايتهم للعلم والعلماء .

وكانت المساجد والخوانق والرباطات والزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء ، كما كانت مأوى المنقطعين للعلم والزهادة والعبادة ، الواردين من البلاد الشاسعة .

وأشتهر من الخوانق خاتقاه : سعيد السعداء ، أحدثها صلاح الدين الأيوبي ووقفها على فقهاء الصوفية ، وولى عليهم شيخاً نعت « بشيخ الشيوخ » ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً ونخباً .

وأنشئ كثير من المدارس فى العصر الأيوبي ، والمملوكى ، وتسابق فى إنشائها الملوك والأمراء ، والوزراء ، ومستخدمو الدولة والأغنياء والمنسوسون ، كما ساهم أغنياء التجار فى إقامة دور العلم^(٣) .

كما ساهمت سيدات الأسرة الأيوبية مساهمة مثمرة فى تشييد المدارس ،

(١) « السلك » : ٢٣٢/٢ .

(٢) « منبرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل : ٣٦٧ ب .

(٣) « خطط المقرئى » : ١٩٤ - وخطط الشام : ١٠٠/٦ .

والوقوف عليها^(١).

بل شاد بعض الخدم بعض المدارس ، مقتفين بذلك أثر سادتهم^(٢) .
وامتثلت دور الكتب العامة والخاصة بالمجلدات ، قالوا : « لما وقعت الحوطة
على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل حملت خزائن الكتب
جميعها إلى قلعة الجبل ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد ، وحمل من
داره خشب خزائن الكتب منفصلة ، وحملها تسعة وأربعون جملاً ، والجمال
التي حملت الكتب تسعة وخمسون : على ثلاث دفعات ، ومن جملة الكتب
المأخوذة كتاب « الأيلك والغصون » لأبي العلاء المعري في ستين مجلداً^(٣) .

وكانت قوص - وإليها نسب البهاء زهير - مركزاً من المراكز الثقافية في
ذلك العهد بجانب القاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب ، وقد حفلت قوص
بالمدارس التي درس فيها طائفة من مشهورى العلماء ، فيهم ابن دقيق العيد ،
وكثير من رجال أسرته ، وقد غلب على مدينة قوص الزهد والتصوف والعلم .
وقد سار الأيوبيون على سنة الفاطميين في احتفالهم بدور الكتب ،
فأنشأوا في المدارس التي أسسوها خزائن للكتب ، ورتبوا قواماً يشرفون عليها .
واحتل أدباء هذا العصر مكانة عالية : كانوا أصحاب السر من السلاطين
وبمنازل الوزراء منهم ، وكان لهم مكان الإجلال ، ولما سار القاضي الفاضل من
دمشق ولحق بالقاهرة خرج السلطان العزيز بن صلاح الدين إلى لقائه ، وأجل
قدمه وأكرمه ، وقد فوض الأفضل أموره كلها لضياء الدين بن الأثير .
وقد سافر الأدباء عند الملوك ، يحاولون الإصلاح بينهم ويسعون بفك الاعتقال
عنهم كما فعل محيى الدين بن الجوزي ، وجمال الدين بن مطروح^(٤) .

(١) « ذيل الروضتين » لأبي شامة : ١١٩ و « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفداء :

١٧٤/٣ .

(٢) « ذيل الروضتين » لأبي شامة ٥٩ ، و « النجوم الزاهرة » : ٢٦٤/٦ .

(٣) « السلوك » : ٢٣٢/٢ .

(٤) « السلوك » : ٢٩٣/١ .

أما الفقهاء والمتصوفة وشيوخ الإسلام فقد كانوا من الدولة في مكان القيادة والريادة ، جلسوا إلى دار العدل للقضاء نيابة عن السلطان ، ودافعوا عن حقوق الشعب ، ووقفوا في وجوه الحكام ، وأصدروا الفتاوى الجزئية في شجاعة أدبية تمز عن النظر ، وكانوا قدوة صالحة في تمسكهم بالمثل العليا وتعاليم الإسلام ، ونالهم في سبيل الحفاظ على مثلهم الأذى : أبعادوا عن مناصبهم ، واعتقلوا ، فما وهنوا ولا استكانوا .

الفصل الثاني

البهاء زهير في عصره

١ - حياته

١ - نفسه :

أملى البهاء زهير نسبة على معاصره ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وذكر أنه أبو الفضل زهير محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبى العنكى الأزدى .

ويزيد صاحب الشذرات على هذه النسبة : الملكى ثم القوصى .

كذلك أنجب البهاء زهير صاحب الوفيات أن نسبة إلى المهلب بن أبي صفرة ، والمهلب هذا له مكان في التاريخ فهو صاحب الحروب والفتوح ، قال عنه أبو إسحق السبيعي : « لم أر أميراً أئمن نقيية ، ولا أشجع لقاء ، ولا أبعد مما يكره ، ولا أقرب مما يجب من المهلب » .

ووصفه عبد الله بن الزبير بأنه سيد العراق .

ب - كنيته :

يكنى البهاء زهير بأبى الفضل كما ترى في سلسلة نسبه التي رواها عنه ابن خلكان ، وقد رأيت صاحب النجوم الزاهرة يكتبه كذلك بأبى العلاء ، وقد ذكره بهاتين الكنيتين أيضاً صاحب الشذرات .

ج - لقبه :

كان البهاء زهير يلقب « بهاء الدين »^(١) .

وأول من لقب بالإضافة إلى الدين - كما يقول القلقشندي - بهاء الدولة بن

(١) « وفيات الأعيان » : ٨١/٢ .

عضد الدولة بن بويه . فقد زاد : نظام الدين على لقبه ، فكان يلقب : بهاء الدولة نظام الدين . وكانت الألقاب مضافة إلى الدين بمنحها كبار الدولة بإذن من السلطان ، وبعضى الزمن استعملها الناس من غير حاجة إلى إذن ، فكان شمس الدين ، وعز الدين ، وشهاب الدين ، وبهاء الدين . . .
 د — مسقط رأسه :

قال البهاء لابن خلكان : إن مولده بمكة في خامس ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وقال له مرة أخرى : إنه ولد بوادى نخلة^(١) . . .
 وليس بين القولين تناقض أو اختلاف : ففي ذكر مكة — في القول الأول — تعريف بالأشهر الأعرف من بلاد الحجاز ، وفي ذكر وادى نخلة — في القول الآخر — تحديد للمولد على وجه التعيين والتخصيص . . . هذا إلى قرب الشقة بين البلدين ، فنخلة — كما يقول باقوت — واد بالحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين ، إحدى الليلتين من نخلة يجتمع بها حاجّ اليمن وأهل نجد . . . فيجتمع حاجتهم بالوفاة وهي أعلى نخلة ، وتسمى : نخلة اليمانية . . . وتسمى النخلة الأخرى : الشامية وهي ذات عرق ، وأعلى نخلة ذات عرق كانت لبني سعد ابن بكر الذين أرضعوا رسول الله^(٢) . . .
 هـ — طفولته وصباه :

قضى البهاء زهير طفولته وشطراً من صباه في الحجاز ، ثم انتقل إلى قوص ، ولا يعرف على التحديد متى انتقل البهاء إلى الصعيد ، ولكن عبارة ابن خلكان في الوفيات تهدي إلى أن البهاء كان بقوص صبيّاً ، وذلك إذ يقول في ترجمة ابن مطروح : « من أهل صعيد مصر ، ونشأ هناك ، وأقام بقوص مدة^(٣) » ثم قال : « وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير صحبة قديمة من زمن الصبا ، وإقامتهما

(١) « وفيات الأعيان » : ٢ / ٨٥ .

(٢) « معجم البلدان » ، نخلة .

(٣) « وفيات الأعيان » : ٦ / ٣٠٢ .

ببلاد الصعيد ، حتى كانا كالأخوين . . . (١)

هذا كلام ابن خلكان ، على حين أن البهاء يقرر في أبيات له أنه قضى
زمن الصبا في مسقط رأسه في الحجاز ، وذلك إذ يقول في قصيدة منها :

(سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها) ويا طول شوقي نحوها وحنيني !
منازل كانت لي بين منازل وكان الصبا إلني بها وقريني
تذكرت عهداً بالمحصب من مني وما دونه من أبطح وحجون
وأيامنا بين المقام وزمزم وإخواننا من واقد وقطين
زمان عهدت الوقت لي فيه واسعا كما شئت من جد^٢ به وحجون
إذ العيش نضر ، فيه للعين منظر وإذا وجهه غص بغير غصون

وليس من العسير التوفيق بين ما يدل عليه هذا البيت من أن البهاء قضى
صباه بالحجاز ، وبين ما يقرره ابن خلكان من أن البهاء كان صبيّاً عند ما
انتقل إلى قوص ، فالتوفيق بين القولين أمر يسير ، فالبهاء قد قضى شطراً
من صباه بالحجاز ، ثم انتقل - صبيّاً كذلك - إلى « قوص » حيث نشأ فيها ،
ونسب إليها ، وصحب فيها ابن مطروح .

و - دواسته وثقافته :

يلقى الديوان - كما تلقى كتب التراجم والتاريخ العام - أضيواء على حياة
البهاء زهير يتهدى بها الباحث في تناول ما كان عليه من ثقافة ، وما أصاب من
معارف كانت شائعة في عصره . . .

فابن خلكان يذكره على أنه من أحسن الفضلاء في عصره نظماً ، ونثراً ،
ونحطاً (٢) . . .

ثم هو قد تولى ديوان الإنشاء ، ومن تولى هذا الديوان كان في السرجة العليا

(١) « وفيات الأعيان » : ٣٠٦/٦ .

(٢) « وفيات الأعيان » : ٨١/٢ .

من البلاغة والبيان . . . (١)

وقد ربّنى البهاء زهير فى « قوص » وهى يومئذ مدينة كبيرة عظيمة واسعة ،
قصبة صعيد مصر ، وأهلها أرباب ثروة واسعة (٢) وقد عنى ولائها ورؤساؤها
بإنشاء المدارس بها ، وزوّجوها بالخزن التى احتوت جملة صالحة من الكتب
النافعة ، واستقدموا لها مشهورى العلماء للتدريس بها (٣) وبذلك كانت « قوص »
مركزاً هاماً من مراكز الثقافة فى ذلك العهد البعيد ، ومعينا فياضاً بالعلم ينهل
منه كل من يريد . . .

وشعر البهاء يكشف عن مظاهر الثقافة العربية بألوانها المختلفة ، سواء
أكانت شرعية ، أم لغوية ، أم أدبية . . .

فمن تعابير الكاشفة عن ثقافته الشرعية واقتباسه من القرآن الكريم قوله :
هذه قصّتى ، وهذا حديثى ولك الأمرُ فاقض ما أنت قاضى
ومن تعبيراته الفقهية قوله :

يا من وآلئى فيه نصّ بينٌ والنصّ عند القوم لن يتأولا

ومن استعماله لألفاظ مصطلح الحديث قوله :
مولى له فى الناس ذكرٌ مُرسلٌ قد أوردته السحبُ عنه مُسنّدا
ويذكر الحديثين فيقول :

فللمع من عني معينٌ يمدّه فإن تسألوه تسألوا ابنَ معينٍ

ويذكر الناسخ والمنسوخ فى قوله :
أبدأ حديثى ليسَ بال منسوخ إلا فى الدفاتر
ويقتبس من الحديث الشريف فى قوله :

(١) « صبح الأحرى » .

(٢) « معجم البلدان » : قوص .

(٣) « الطالع السعيد » : ٣٢٠ - ٣٢٥ .

هو للحسن مَشْرِقٌ فيه قد تَظَهَّرَ الفن^(١)

ومن تعبيراته الفلسفية والكلامية قوله :

ويشرقُ وجهُ الأرض حينَ تحلُّها كأنك توحيدٌ حوته ، وإيمانُ
وقوله :

هذا هو الأدب الذي أنشأته فاهترَ منه روضه المطلول
عطائه لما رأيته معرضاً عنه ، وما من مَذْهَبِي التعطيل

ومن التعبيرات التي تكشف عن ثقافته الأدبية قوله :

سيرضيك منها ما يزيد على الرضا ويستعيد ابن العبد والمتكلمسا^(٢)
وقوله :

ورب راية مجد قد كنتُ فيها عرابة^(٣)
وقوله مشيراً إلى الأمثال :

على مثلها يبكي المحب صباية فيا مقلتي ، لا عطر يعد عروس
وهو قارئ يتخذ أنيساً له الكتب الأدبية :

أنا في البستان وحدي في رياض سندس
ليس لي فيه أنيس غير كتب أدبيه
ومن تعبيراته النحوية قوله :

عسى عطفه للوصل يا واو صدغه على ، فإني أعرف الواو تعطف

(١) روى الإمام البخاري في باب قول النبي « الفتن من قبل المشرق » - أن النبي قام إلى جنب المنبر فقال : الفتنه ههنا ! الفتنه ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان أو قال : قرن الشمس .

(٢) ابن العبد : هو طرفة الشاعر الجاهلي المشهور . والمتكلمس شاعر جاهلي مات قبل الهجرة بحمسين سنة .

(٣) أحد أجواد العرب المشهورين وفيه يقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت الجهد تلقفها حرابة بالعين

وقوله :

جعلتكم خبرى فى الحب مبتدئاً وكل معرفة لى فى الهوى نكره
ويكره أن يكون مخالفاً للنحاة ، فإن ظهر فى شعره شىء من ذلك أوّله
بما يتفق هو والنحو :

بروحى من أسميها (بستى) فتنظر لى النحاة بعين مقيت
برون بآنى قد قلت لحناً وكيف وإننى لزهير وقتى
ولكن غادة ملكت جهانى فلا لحن إذا ما قلت : سى

وبعد : فإن حقاوة السلاطين بالعلماء ، وافتتاح المدارس ودور العلم ،
ونوعية البهاء فى قوص وهى مركز من مراكز الثقافة فى ذلك العصر ، وميله
الفطرى إلى القراءة ، وآماله العريضة فى الوصول إلى أعلى المناصب - كل ذلك
كان بعض ما جعله يهتم بالثقافة على اختلاف مظاهرها ، وتعدد أنواعها وكان
لذلك أثره فى تعابيره على النحو الذى رأيت .

ز - اتصاله بأعيان عصره :

(١) جمال الدين بن مطروح ^(١) :

لم تتضح صلات البهاء بأعيان عصره إلا بعد انتقاله إلى قوص ، وتعلمه
بها ، وتخرجه فى مدارسها ، ويبدو أن أول من اتصل به من الأعيان هو الشاعر
جمال الدين بن مطروح ، وقد كان ابن مطروح من أهل صعيد مصر ، ونشأ
هناك ، وأقام بقوص مدة ^(٢) وتأكدت الصلة بينه وبين البهاء حتى كانا
كالأخوين ^(٣) :

(٢) المكرم محمد الدين بن إسماعيل اللمطى :

وفى قوص كذلك يتصل البهاء بمجد الدين بن إسماعيل اللمطى حاكم قوص

(١) • ابن مطروح : (٥٩٢ - ٦٤٩) هـ .

(٢) • وفيات الأعيان : ٣٠٢/٥ .

(٣) • وفيات الأعيان : ٢٠٦/٥ .

وهو يبنى كالبهاء :

تعزى لقوم سادة يمنية أعلى الورى قلبراً ، وأزكى محتداً
ولعل اجتماعهما فى النسب اليمنى قريب ما بينهما ، وكان مسياً فى التواصل ،
وقد روى اللمطى هذا قوصاً فى ذى القعدة سنة ٦١٦ هـ ، وفى ديوان البهاء قصائد
ست مدح بها هذا الحاكم ، وهذه القصائد تصور تطور العلاقات بينهما :
فالقصيد الأولى أرخت فى ديوانه سنة ٦١٧ هـ ، وذكر أنها أولى مدائحه ،
وفىها يبنى اللمطى بولايته أعمال قوص ، وفيها يقول :

ورب قوافٍ قد طويتُ برودها فلم أرضَ أن تغدو لغيرك ملبساً
أقمن حبيسات كحبسك من جنى على أنها لم تجن يوماً فتحبساً
فها هى كالوحشى من طول حبسها عساها ببرٌ منك أن تتأنساً
وهذه الأبيات صريحة فى أن هذه القصيدة أولى مدائح البهاء ، كما أنه فى
البيت الأخير يرجو من الأمير بره وخيره ، كما يرجو أن يوالى بره ويتابعه فى
البيت الذى يقول فيه :

وإن بدأ الشعمى تلاها بمثلها فتردادٌ حسناً كالقريض مجنساً

* * *

وأكد البهاء صلته بمجد الدين اللمطى فقرأه يهته بشهر الصوم سنة ٦١٩ هـ :
وأفاك شهر الصوم يا من قدره فينا كابلة قدره لن يُجحداً
وبين موقف الأمير منه فى البر والرعاية ، وذلك إذ يقول :

مولى بدا من غير مسألة بما حاز الندا كرمأ ، وعاد كما بدا

* * *

ثم تقع بين الشاعر والأمير جفوة ، فيرسل البهاء عتابه فى قصيدة طويلة ،
نستنتج منها أن مجد الدين اللمطى ، قد وعد البهاء وعداً ، والبهاء يستتجز الوفاء
به ، وأن الأمير اتخذ البهاء كاتباً ثم صرفه عن الكتابة ، وأن البهاء متألم لهذه الفارقة :
لنا عندكم وعد فهل وفيتم ؟ ولتم لنا قولاً فهل فعلتم
ومثلك لا يأسى على فقد كاتبٍ ولكنه يأسى عليك ويندم

ويرى البهاء أن الأمير قد مل صحبته ، فبأسى لذلك ويأسف ، ويرسل
يهنئه بالعيد ، ويمزج ذلك بالحسرة على أيام قضائها في خدمة الأمير ، ويستعطفه
وذلك إذ يقول :

مولاي دعوة من أطلت جفاهه وعلى جفائك إنه لوصول
يدعوك مملوك يراك ملكه أنا ذلك المملوك والمملول

(٣) الوزير صاحب صفى الدين بن شكر :

وقد وزر ابن شكر للملك العادل (ت ٦١٥ هـ) .

وكانت خلج الخليفة ترد إلى العادل وأبنائه كما ترد إلى وزيره صاحب ابن
شكر ، هذا ، مما يدل على أنه بلغ مكانة عظيمة^(١) حتى حصلت بينه وبين
العادل منافرة أوجبت غضب العادل عليه ، وسفره إلى البرية ، فركب وجهاء القوم
حتى لحقوه ، وقدموا به على العادل فرضى عنه ، ومن حينئذ انحطت منزلة ابن
شكر ، وكان ذلك في سنة ٦٠٦ هـ .

وقد تغير العادل على ابن شكر مرة أخرى سنة ٦٠٩ هـ ، فأقاله من الوزارة^(٢)
وأخرجه إلى آمد ، فلم يزل بها حتى مات العادل ، ولما ولى الكامل استدعى ابن
شكر من آمد وأكرمه . . . واستوزره ست سنوات وانكف بصره وهو يباشر
الوزارة حتى مات .

هذا هو صاحب صفى الدين بن شكر ، وتلك منزلته في التاريخ السياسى من
دولة الأيوبيين ، وقد بلغت منزلته أوج عظمتها زمن العادل ، وأغرقت هذه
المكانة البهاء أن يرسل إليه بشعره مادحاً يستدر عطفه ، ويستميح فضله ، ويذكر
له أن حرفة الأدب حالت بينه وبين تحقيق ما يرجوه من رغبات :

وما دهاني حرفة أديّة غدت دون إدراك المطالب خندقاً
وإن شملتني نظرة صاحبية فلست أرى يوماً من الدهر مُملقاً

(١) هـ السلوك : ١ / ١٦٩ .

(٢) هـ السلوك : ١ / ١٠١ .

ويظهر من هذه القصيدة أن ابن شكر كان مؤلفاً ، وكانت له مشاركة في فروع الثقافة التي سادت حينئذ :

وكم لك فينا من كتاب مصنف تركت به وجه الشريعة مشرقاً
عكفنا عليه نجتني من فنونه فعلمنا هذا الكلام المؤثقا

(٤) الملك العادل :

ويرق البهاء في صلاته بأعيان عصره إلى الملوك والسلاطين ، بعد الأمراء والوزراء فيتصل بالملك العادل ويمدحه ، ويأنس إليه ، ويجد الأمن والطمأنينة عنده :

أمنتُ بلفياك الزمانَ وصرفه فغيري من يخشى عليه اهتضامه

(٥) الملك الكامل :

وهو ابن الملك العادل ، وفي عهده انصر على الفرنجة في معركة دمياط وكان لهذا الانتصار فرحة هزت المشاعر ، وفتقت قرائح الشعراء ، وأرسل البهاء إلى الكامل مدحة في مطلعها :

بك اهتزَّ عطفُ الدين في حُلِّ النصر وردَّت على أعقابها ملَّةُ الكفر

(٦) الملك المسعود يوسف بن الكامل :

وكان الملك المسعود كذلك ممن اتصل بهم البهاء ، وقد صرح البهاء بآماله وأطماعه في قصيدة أرسلها للمسعود من قوص ، وأنه يود أن يكون شاعر القصر ، ويبيِّن أن له من المواهب ما ينشر بها ذكر الملك المسعود بين الملوك .

فيا صاحبي هب لي بحقك وقفة يكون بها عندي لك الحمد والأجرُ
لدى ملكٍ رحب الخليفة قاهرٍ فجلسه الدنيا ، ونخادمه الدهرُ
سأذكرى له بين الملوك مجامراً فمن ذكره ندى ، ومن فكرى الجمر
ويستجيب الملك المسعود لرغبة البهاء ، ويحقق آماله ، فيقربه منه ، حتى

يحويها إيوان ، ويعظم هذا القرب في عيني البهاء فلا يدري أنى بقضة هو أم في منام :

وقد قرب الله المسافة بيننا فيها أنا يحويني وإياه إيوان
أشك وقد عاينته في قدومه وأمسح عن عيني ، هل أنا وسنان ؟
(٧) الملك الصالح نجم الدين أيوب :

ويتسم الزمن للبهاء زهير ، وتقبل الدنيا عليه ، فيرغب الملك الصالح نجم الدين أيوب في أن تتوثق صلة البهاء به ، فلا يسع البهاء إلا أن يستجيب لرغبة الصالح أيوب ، ويجد في الاتصال به غنى عن سواه ، كما يجد الطمأنينة والاستقرار .

وجه الملك الصالح البهاء إلى البلاد الشرقية حتى إذا ملك الصالح مدينة دمشق عاد البهاء إليها كاتباً للملك الصالح ، وظل كذلك حتى طمع الملك عماد الدين إسماعيل في ابن أخيه الصالح أيوب ، واستمال عماد الدين عسكر الصالح ، ففارقوه ، وبقي الصالح نجم الدين في دون المائة من أمراته وأجناده ، وثبت معه البهاء زهير ، ونزل الصالح نجم الدين بنابلس ، فسار إليه الملك الناصر داود بعساكره فقبض عليه ، وأركبه على بغلة في إهانة ، وأقام البهاء في نابلس على الوفاء لصاحبه الملك الصالح حتى تم الصلح بينه وبين الناصر داود على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر ، وعاد البهاء إلى خدمة الملك الصالح سنة ٦٣٧ هـ ، وأقام عنده في أعلى منزلة ، واختص به ، وولاه ديوان الإنشاء : يقرأ الكتب الواردة على السلطان ، ويكتب أجوبتها ، ويصرف المراسم .

وندبه الملك الصالح نجم الدين إلى مهام الأمور : بعثه إلى الناصر صاحب حلب يطلب تسليم الصالح عماد الدين إسماعيل إليه ، ولكن الناصر لم يشأ تسليمه ؛ لأنه رأى في ذلك ، إضراراً للذمة ، وليس من المروءة إذا استجار إنسان بإنسان أن يخنر ذمته ويسلمه إلى عدوه ، فرجع البهاء إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين ، وقد عظم عليه جواب الناصر إليه .

وبقي البهاء في خدمة الملك الصالح حتى سنة ٨٤٧ هـ ، وهي السنة التي مات فيها الصالح أيوب ، وقبيل موته صرف البهاء من خدمته ، وغضب عليه .

ويقول المؤرخون في سبب تغير الملك الصالح على البهاء : « إن البهاء كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « أنت تعرف قلة عقل ابن عمي ، وأنه يحب من يصله ويعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسير الكتاب إلى البهاء زهير ليغيره ، والبهاء زهير مشغول ، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فأمره بختمه فختمه ، وجهزه إلى الناصر على يد نجاب ولم يتأمله ، فسافر به النجاب لوفته ، واستبطاً الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيراً بعد ذلك وقال له : ما وقفت على ما كتبه بخطي بين الأسطر ؟ قال البهاء : ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه : وأخبره أنه سير الكتاب مع النجاب ، فقامت قيامة السلطان وسيروا في طلب النجاب فلم يلزموه ، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك ، فعظم عليه وتألم له . ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب المظم ويقول له فيه : « والله ما بي ما يصدر منك في حق ، وإنما بي إطلاع كتابك على مثل هذا ، فجز ذلك على الملك الصالح ، وغضب على بهاء الدين زهير ، وبهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك إلى نفسه ، ولم ينسبه لكاتب الكتاب وهو فخر الدين ابن لقمان .

وكان الملك الصالح كثير التخیل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة .

(٨) الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ :

ولما مات السلطان الصالح أيوب أخفت زوجته شجرة الدر خبر موته خوفاً من الفرنج ، واتفقت مع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ - وكان أقرب الناس

إلى السلطان — على أن يقوم بتدبير المملكة إلى أن يقدم تورانشاه ، فاستدعى الأمير فخر الدين بهاء الدين زهيراً من القاهرة إلى المنصورة ليحلف مع أكابر الدولة وأجنادها للسلطان ولابته تورانشاه أن يكون سلطاناً من بعده فحلفوا جميعاً ظناً منهم أن السلطان حي .

وأعاد الأمير فخر الدين البهاء زهيراً إلى منصبه ، ثم تطورت الأمور ، وأعرض تورانشاه عن ممالكك أبيه ، وأطرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد ، وقدم الأراذل ، وأبعد البهاء زهيراً عن عمله مع من أبعد .

(٩) الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين :

مضى البهاء إلى بلاد الشام يمدح الناصر يوسف بن العزيز وقد ملك دمشق سنة ٦٤٨ هـ ، ويعرض البهاء على الناصر بضاعته ، ويثنه شكواه ، ويفصح عن آماله ، ويرجو عنده صلاح حاله ، ويفريه أن يجعله صاحب إمارة :

فما يوسف يقرى بناب مسنة ولا العرق مفصود ، ولا الشاة تذببح
وبعض عطايا المدائن والقرى فن ذا الذي في ذلك البحر يسبح
ومع هذا لم تتحقق آمال البهاء ، ولم تنجل خطوبه ، ولم ينجح في بغيته ، فأخذ يشكو إلى يوسف بن عبد العزيز ما يلقاه من البؤس والفاقة ، ويطلب منه أن يعينه على أحداث الزمان وذلك في قصيدته التي مطلعها :

طريقتك المثلى أجل وأشرف وسيرتك الحسنى أبر وأرأف

(١٠) الملك المنصور على بن الملك العزيز بن الملك المعز أيبك الصالحى :

وهو آخر من اتصل به من الملوك ، وفي ديوانه ملحة له (مؤرخة ٦٦٥ هـ) وفيها يؤكد إخلاصه للمنصور على ، ويرجو منه أن يوليه النعمة ، ويشد أزره :
لعل الذى فى أول العمر فاتنى تعوضنيه أنت فى آخر العمر
ولم تحقق الأقدار ما تمنى البهاء ، فظل على بؤسه وفاقة إلى أن مات .

(١١) صاحب كمال الدين بن العديم :

وقد كتب له البهاء أياتاً يذكر فيها له أنه اختاره لتحقيق أمنية ، وأنه اصطفاه دون سواه . ذلك في مقطوعته التي يقول في أولها :

دعوتك لما أن بدت لي حاجة^(١) وقلت : رئيس^(٢) مثله من تفضلاً^(٣)

هذا وهناك غير من ذكرنا - أشخاص اتصل بهم البهاء ومدحهم ، ولم أر لهم ذكراً بين يدي من كتب التراجم^(٤) ، ولعل أقدار هؤلاء لم تبلغ المترلة التي يذكرهم بها التاريخ .

(ح) صفات البهاء زهير^(٥) :

تلقى كتب التاريخ والتراجم ضوءاً على أخلاق البهاء زهير ، كما أن شعره مرآة تجلت فيها صفاته واضحة جليلة .

وأول ما يطالعنا من ديوان البهاء زهير صفة الوفاء ، وكذلك تحدثنا كتب التاريخ عنه ، قالوا : لما طمع الصالح عماد الدين في الملك الصالح نجم الدين ، وتفرق جيش نجم الدين عنه بقي الصالح في دون المائة من أمرائه وأجناده ، وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه ، وتركه أيضاً بدر الدين قاضي سنجار ، وكان أنخص أصحابه ، وصاروا كلهم إلى دمشق ، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح نجم الدين قائمة ، وثبت معه ثمانون من مماليكه ، وبعض الأمراء ، وثبت معه أيضاً كاتبه بهاء الدين زهير^(٦) .

فثبتات البهاء مع 'مخدومه' وهو على تلك الحال من الضعف ، وتفرق الأجناد والأقارب والأهل عنه - دليل على ما كان يتمتع به البهاء من صفة الوفاء ، وكثيراً

(١) « خزائن الأدب » : ٦٤ والديوان : ١٧٤ .

(٢) من هؤلاء مثلاً : ابن جملك ، ونصير الدين أبو الفتح اللطفي . . . وهو غير عماد الدين اللطفي الذي سبق أن تحدثت عن صلته بالبهاء .

(٣) « السلوك » : ٢٨٨/١ .

(٤) « السلوك » : ٢٨٨/١ .

ما هتف في شعره بهذه الصفة .

فهو الذي يقل :

تعال فعاهدني على ما تريده فإني مليءٌ بالوفاء زعيم
ويحدثنا معاصره ابن خلكان عن أخلاقه فيقول :

« كنت أود لو اجتمعت به ، لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به
ورأيت فوق ما سمعته عنه : من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة
السجايا ، وكان متمكناً من صاحبه "يقصد الملك الصالح نجم الدين أيوب" ،
كبير القدر عنده . . . ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا بالخير ،
ونفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته ، وجميل سفارته ، فلا جرم أن كان ممدوحاً يثنى
عليه صحبه ، ومن اتصل بهم ، ويمدحونه بشعرهم ، مدحه ابن الخلاوي بقصيدة
طويلة كان من جملتها قوله :

تجيزها وتجز المادحين بها فقل لنا : أزهير أنت أم هرم
وكتب إليه ابن مطروح يقول له :

أقول وقد تتابع منك بر وجود ، ما برحت لكل خير
ألا لا تذكروا هرمًا بجود فما هرم بأجود من زهير !

* * *

والوفاء الذي اتصف به البهاء زهير هو الذي جعله يحن إلى وطنه إذا ما فارقه ،
فإذا كان بالصعيد حن إلى الحجاز :

أحن إلى عهد المحصب من منى وعيش به كانت ترف ظلاله
وإذا بعد عن الصعيد هتف به :

وبرتاح قلبي للصعيد وأهله وعيش مضى لي عندكم ومقام
وإذا هم بالرحيل عن مصر نازعته نفسه :

أرحل عن مصر وطيب نعيمها وأي مكان بعدها لي شائق ؟

فإن كان لا بد من الرحيل فالدعاء الدعاء يا أحباب ، وإلى اللقاء إلى اللقاء :

أحبابنا أرف الرحيل (م) فزودونا بالدعاء
أحبابنا هل بعد هذا (م) اليوم يوم اللقاء ؟ !
وهو حيناً يحزى القادرين بالوفاء :

أنا الوفي لأحبابي ، وإن غدروا أنا المقيم على عهدي ، وإن رحلوا
أنا المحب الذي ما الغدر من شيمي هيات خلقى عنه لست أنتقل

وأحياناً تبلغ به ثورته على الخائنين فيرى خيانة من يحون :

خل من خللك يا قلب (م) ومن خائلك خبئه
لا ظنا تصن بالله ودا لحنون لم يصنه
وكما سامك سمه وكما دانك دمه
مع أنه الذي يقول :

فلو خان طرفي ما حوته جفونه ولو خان قلبي ما حوته ضلوعي
أو يقول :

مد كنت لم تكن الخيانة (م) في المحبة من خلقي
وهو يرى التقاليد ، ويكره الإثقال على الناس :

وللناس عادات وقد ألفوا بها لها سنن يروعونها وفروض
فن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقیل بينهم وبغض
ومن هنا كره الثقیل من الناس ، يلقي فيه ملك الموت ، ويراه خليقاً بأن
ينفر عنه أصحابه ، ويبلغ بغض البهاء الثقيل حدّاً لو ذكر معه اسمه على الماء
ما ساغ شربه .

وثقیل كأنما ملك الموت قربه
لو ذكر اسمه على الماء (م) ما ساغ شربه

* * *

ويُوصف البهاء نفسه بالذكاء : فهو يفهم بالإشارة الدالة : واللمحة الخاطفة :
أشركي بوصف واحد من صفاته تكن مثل من سمى : وكفى : ولقباً

* * *

وهو رضى النفس في حال شبابه ومشيبه :
سلام على عهد الشبية والصبا وأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرجبا
ويا راحلاً عني رحلت مكرماً ويا نازلاً عندي نزلت مقرباً

* * *

وهو ذو همة - وإن كان فقيراً :
واقنع بكسرة خبز وهمة كسرويه
وهو من أجل همة لا يرضى الذلة والمهانة :
استغن عن زيد، وعن عمرو، وعن فاروق بلاداً أنت فيها تمنين

* * *

ثم هو ذو مروءة ، ويرى المروءة وسيلة إلى رحابة العيش : وسعة الحياة :
وما ضاقت الدنيا على ذي مروءة ولا هو مسدود عليه رحابها
فقد بشرتني بالسعادة همتي وجاء من العلياء نحوى كتابها

* * *

وهو كريم :
لى منزل إن زوته لم تلق إلا كرمك
وإن تسل عن به لم تلق إلا خدامك
وهو صادق يفعل ما يقول ، حسيي يمنعه الحياء أن يخلف وعداً :
إذا قلت قولا كنت للقول فاعلاً وكان حيائي كافلي وضميني
وهو في حاجات الناس ، يعينهم في غاية من المروءة والنبيل ، وينبلهم
فوق الذي يرجون ، ويلقاهم في بشاشة ولطف وترحيب :

وباربٍ داعٍ قد دعاني لحاجة فعلتُ له فوق الذي كان أملاً
سبقتُ صداه باهتمامي لكل ما أراد ، ولم أحوجه أن يتمهلاً

وأوسعته لما أثنى بشاشةً ولطفاً ، وترحيباً ، وخلقاً ، ومنزلاً
 بسطت له وجهاً حياً ومنطقاً وغباً ، ومعروفاً هنيئاً معجلاً
 وراح يرانى منعماً متفضلاً ورحمت أراه المنعم المتفضلاً

ط - أسرة البهاء زهير :

في بعض نسخ الديوان المخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ٢٠٥١ أدب) وصف
 لوالد البهاء زهير بأنه (العارف قدس الله روحه) ، وفي هذه العبارة ما يشير إلى أن
 والد البهاء كان على صلة بالله ، وأنه يسلك في دنياه ما يسلكه العارفون المتصوفون
 من أهل الهدى والصلاح . . .

وفي قصيدة استعطف بها أحد ممدوحيه يقول البهاء :

ولولا أمورٌ ليس يحسنُ ذكرُها لكنتُ عن الشكوى أصدً وأصدف
 ولكنْ أطفالاً صغاراً ونسوةً ولا أحدٌ غيري بهم يتلطفُ
 سرورى أن يبدو عليهم تنعمٌ وحزنى أن يبدو عليهم تقشفُ
 وفي هذه الأبيات ما يشير إلى أنه يرعى أطفالاً ، ويعول نسوة ، وقد كان
 يستكتب شعره ولداً له يسمى صلاح الدين ، وذلك ما تكشف عنه عبارة وردت
 في ديوانه تقول :

كتب « البهاء زهير » عند موته بالديار المصرية على يد ولده صلاح الدين
 إلى محمد بن الحكم عماد الدين الدريني :

ما قلتَ أنتَ ، ولا سمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا
 إن الكرام إذا صحبتهم سترُوا القبيح ، وأظهروا الحسن
 هذا مبلغ العلم بأسرة البهاء : أبيه ، وأولاده ، وأهله ، وقد كان بهم ياراً ،
 وعليهم حريصاً . . .

ى - وفاته :

فى السنة التى سقطت فيها بغداد على يد التتار سنة ست وخمسين وسبعمائة هجرية ، حدث وباء عظيم بالديار المصرية : ويجتمع على البهائم والبهاة والغنم والفاقة وكبر السن فلا يقوى على المقاومة ، ويدركه القضاء المحتوم ، فيسلم أنفاسه الأخيرة قبل مغرب يوم الأحد رابع أيام شهر ذى القعدة ، ودفن من الغد فى القرافة الصغرى فى الجهة القبلىة بالقرب من قبة الإمام الشافعى (رضى الله عنهم أجمعين)

الفصل الثالث

جوانب البهاء زهير

١ - البهاء زهير الكاتب

يذكر المؤرخون في ترجمة البهاء زهير أنه « من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظاماً ، ونثراً ، وخطاً »^(١) ، وحين تولّى الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر ، ولّى ديوان الإنشاء صاحبُ البهاء الدين زهيراً^(٢) ، ولإذن كان البهاء كاتباً إلى جانب شهرته بالشعر ، ولكن التاريخ الأدبي والسياسي معاً لم يحفظ لنا من آثار البهاء في النثر إلا كتابه الذي يرد فيه على لويس التاسع ملك فرنسا حين عزم على التوجه إلى أرض مصر وأخذها ، فسار السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق وهو في محفة ، ونزل بأشموم طناع في محرم سنة ٦٤٧ هـ ، وأعد العدة للدفاع عن دمياط ، وفي أواخر صفر وردت جيوش العدو ، وبعث ملكهم إلى السلطان بكتاب يدل فيه بقوته وعدده جيشه^(٣) .

فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض ، بكى واسترجع ، فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب^(٤) :

وهو الأثر الأدبي الوحيد الذي حفظه التاريخ - على ما أعلم - من نثر البهاء زهير ، وهو على كل حال يعطينا صورة عما كان عليه نثر البهاء فهو يميل إلى الإيجاز والوضوح ، وتظهر فيه المراوحة بين الازدواج والسجع ،

(١) « وفيات الأعيان » : ٨١/٢٠ .

(٢) « صبح الأعشى » و « حسن المحاضرة » .

(٣) اطلبه في باب المنتخبات .

(٤) اطلبه في باب المنتخبات .

مع غلبة السجع عليه . والسجع فيه غير متساوى الفقرات . كما يبدو في هذا الكتاب الاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد بأقوال الحكماء ، ونوفيقه في هذا وذلك ، والكتاب بعد ذلك يلقي ضوءاً على ثقافة البهاء .

وقد كان البهاء مقيداً في رده على كتاب لويس التاسع بما أثار لويس من نقاط . ومن هذا جاءت أفكار جوابه ضحلة محصورة فيما عرض لويس من ضروب التحذير . . . فإن حذر لويس الصالح نجم الدين كثرة العساكر التي تملأ السهل والجبل . وأنهم مرسلون بأسيايف القضا . . . قال البهاء : « نحن أرباب السيوف . . . » وإن ذكر لويس ما كان عليه أهل الأندلس حينئذ من الطاعة والضعف . . . ذكره البهاء بما كان عليه المسلمون الأوائل من القوة والفتح والتشكيل بالأعداء . . .

وكان البهاء كشف له عن الغيب حين حذر لويس عاقبة أمره الذي صار إليه . وذلك إذ خاطبه البهاء بقوله : « وبغيتك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك » . . . وقد كان . . . حيث أخذ لويس أسيراً سجيناً في دار ابن لقمان بالمنصورة . هذا ويذكر المؤرخون أنه لما فهم الفرنج موت السلطان الصالح نجم الدين أيوب — وقد أنخت شجرة الدر خبر موته أولاً — نزلوا على فارسكور فورد في يوم الجمعة إلى القاهرة من معسكر المصريين كتاب فيه حضن الناس على الجهاد . . . أوله :

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

قال المقرئ : « وكان كتاباً بليغاً فيه مواظمة » ^(١) ويرجع ابن واصل أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير ^(٢) .

ويبين المقرئ أثر هذا الخطاب حيث حصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات والضحيج ما لا يوصف .

(١) « السلوك » : ١/٣٤٦ .

(٢) « مفرج الكرب » ص ٣٦٤ ب .

ولا يستطيع الباحث أن يعتمد على هذا الأثر دليلاً على قوة الخطاب وبراعة البهاء فيه ، فربما كان تأثير الناس راجعاً إلى ما فيه من المواعظ كما يقول المقرئى ، أو إلى ما أثار عندهم من العواطف الدينية والوطنية . وتوقعهم استيلاء الفرنج على الديار ، وما يستتبع ذلك من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ومهما يكن من أمر فإن شهرة البهاء شاعراً أعظم من شهرته كاتباً ، وحسبنا أنه كان فى الشعر صاحب مذهب يعرف به ويدل عليه ، وهو ما أنا بسبيل إليه فيما يلى من حديث . . .

٢ - البهاء زهير الشاعر

١ - ديوانه :

يقرر ابن خلكان فى وفياته أن البهاء قد أجازته رواية ديوانه الذى كان كثير الوجود بأيدي الناس فى زمانه .

ويذكر المستشرق إدوارد هنرى بالمر أن الذى جمع ديوان بهاء الدين زهير بعد وفاته هو شرف الدين ، وأن ذلك مذكور فى نسخة حسنة موجودة بمكتبة أكسفورد ، وليس ببعيد ذلك فقد كان شرف الدين هذا - وهو المعروف بابن الحلأوى الموصلى - ذا صلة بالبهاء زهير^(١) .

وفى دار الكتب المصرية ثلاث نسخ خطية لإحداها برقم ٢٠٥٦ أدب والثانية برقم ٢٨ م تاريخ كتبت سنة ١٠٠٢ هـ ، والثالثة تحت رقم ٥٥٧ بخط حسين بن محمد فرغ من كتابتها فى ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ .

أما طبعات الديوان فكثيرة ، ذكرها سركيس فى معجمه - ويبين أنه طبع

(١) « وفيات الأعيان » : ٨٣/٢ .

بمصر سنة ١٢٧٧ هـ ، سنة ١٢٨٧ هـ ، سنة ١٢٩٧ هـ ، وطبع بمطبعة شرف ، سنة ١٣٠٠ هـ ، ومطبعة عبد الرزاق سنة ١٣٠٥ هـ ، والمطبعة الميمنية سنة ١٣١١ هـ ، ومطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٢ هـ ، وطبع في بيروت ، طبعه صاحب المكتبة العمومية سليم إبراهيم صادر ، ولم يذكر لها تاريخ طبع .

كما طبع ديوان البهاء زهير بكمبريدج سنة ١٨٧٦ م ، في مجلدين طبعه إدوارد هنري بالمر مدرس اللغة العربية بمدرسة كمبريدج ، ويحوى المجلد الأول منهما مقدمة تبين منزلة الشعر عند العرب ، وترجمة للبهاء زهير ، ويحوى المجلد الثاني ترجمة للديوان بالإنجليزية شعراً .

كذلك طبع الديوان بمصر بالمطبعة المنيرية ولم يذكر لها تاريخ طبع كذلك ، وقد صدرت هذه الطبعة بترجمة قصيرة لصاحب الديوان .

وديوان البهاء زهير في حاجة بعد كل هذه الجهود إلى إخراج جديد يحقق فيه شعره ، ويقابل بين مختلف نسخه مخطوطة ، ومطبوعة ، وفاء لحق الشاعر العربي ، الذي كثيراً ما هتف في شعره بالوفاء . . .

ب - طريقته :

(١) لغته : انتقل البهاء زهير العربي من الحجاز إلى قوص بصعيد مصر ، ولا شك في أن لغة الحجاز في عريبتها كانت أسلم من اللغة في قوص ، ثم في القاهرة . . .

جاء البهاء إلى قوص فطرق سمعه لغة الحديث العادية الجارية : لغة لا هي بالعربية السليمة ، ولا هي بالغربية عن العربية ، بل تمت لها بصلة كبيرة . . . ومثل تلك اللغة — على الوافد العربي بخاصة — تثير تنبهاً منه إليها ، لما فيها من الغرابة ، وتغري باستعمالها بما تحوى من القرابة . . .

ثم كان أن اندمج البهاء العربي القوصي الصعيدى في الشعب المصري ، وخالط طبقاته المختلفة : خالط دهماءه ، وعاشر خاصته ، فجاء شعره عربياً يمتد إلى عروبه ، واضحاً يفهمه أهل عصره من عامة الناس والأتراك . . .

واستطاع بذلك التوفيق في إنشاء أشعار يطرب لها العامة والخاصة على السواء . . .
 ورأى البهاء المصريين وما طبعوا عليه من خفة الروح ، وتلك صفة يشهد
 بها كل من زار مصر من الوافدين الذين عاشوا فيها مدة ، وخالطوا أهلها ،
 ولا تزال هذه الشهادة جارية على ألسنة هؤلاء الزائرين حتى هذا الزمان .
 كان ذلك كله بعض ما دفع البهاء زهيراً إلى أن تكون لغة الشعر عنده مصرية
 تعبر عن الحياة العادية في روحها ، وبساطتها ، ومرونتها ، عربية في جريها
 على قواعد النحو والإعراب . . . وجاءت أشعاره تحكى عنوبة النيل ، ورقة
 النسيم الليل ، في خيال هادئ ، ولفظ عذب قريب ، ومعنى لطيف
 مألوف .

جـ - البديع في شعره :

شغف البهاء بالبديع ، من جناس ، وطباق ، وتورية ، ومراعاة للنظير ،
 وتضمنين ، واقتباس ، وحسن تعليل ، وإلغاز إلى غير ذلك من فنون المحسنات ،
 ويصرح البهاء أنه ولوع بالبديع ، شديد التزوع إليه ، وأن مقياس جودة
 القصيدة بما فيها من زخرف القول :

وما ضاع شعري فيكم حين قلته بلى وأبيكم ضاع فهو يضوع
 أحب البديع الحسن معنى وصورة وشعري في ذاك البديع بديع
 ويقول :

وفضحتُ أزهارَ الريا ض بحسن أزهار البديع
 والجناس أكثر ألوان البديع دوراناً في شعر البهاء ، وقد بلغ من احتفاله به
 أن قال :

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها فتزداد حسناً كالقريض مجنّساً
 وقال :

وأعجبني التجنيسُ بيني وبينها فلما تبدى أشنباً رحتُ أشبّأ

وهو من أجل التجنيس — كثيراً ما يورد الكلمات الآتية مقروناً بعضها إلى بعض : يزهو ويزهر ، يشكو ويشكر ، زاه وزاهر ، شاك وشاكر ، الليث والغيث ، غاياته وغاياته ، سفراته وسفراته ، الدقيق والرقيق ، أوفى وأوفر ، معذور ومعذول ، مأمول ومأمون ، مملوك ومملول .

ومن حسن التعليل قوله : (وفيه أيضاً تورية) .

كنى الله دمياط المكاره ، إنها لمن قبلة الإسلام في موضع النحر وما طاب ماء النيل إلا لأنه يحل محلّ الريق من ذلك الشجر وقوله (وفيه أيضاً اقتباس) :

وما قاض ماء النيل إلا بدمعى (لقد مرج البحرين يلتقيان)

وقوله (وقد جمع فيه بين الاكتفاء والمقابلة) :

فلانة	من	تيها	تغص	بها	مقلتي
وقد	زعت	أنها	وليست	بتلك	التي
فلا	وجه	إن أقبلت	ولا	ردفت	إن ولت

ومن الجمع بين التورية والطباق قوله :

فتنت به حلواً مليحاً وإنه لأعجب شيء : كيف يحلو ويملح ؟

ومن التورية والاقتباس قوله :

أملى فيك دونه سيفٌ لحظ هذه قصتي ، وهذا حديثي
ذاك مستقبل ، وهناك ماضى ولك الأمر : فاقض ما أنت قاضى

وقال ملغزا في اسم مدينة « يافا » :

بعميشك خبرني عن اسم مدينة يكون رباعياً إذا ما كتبه
على أنه حرفان حين تقوله ومعناه حرف واحد إن قلبته

د - معانيه الطريفة :

وللبهاء زهير معان طريفة يحيل بها المطروق من المعاني إلى نوع من الجدة والابتكار ، من ذلك قوله في الوشاة :

إني لأشكر للوشاة يداً عندى يقل لثلاثها الشكرُ
قالوا فأعزونا بقولهم حتى تأكد بيننا الأمرُ

وقوله يخاطب رسول حبيبه :

ودعني أفرّ من مقلتيك بنظرةٍ فعهدهما ممن أحبّ قريبُ
وقوله :

قلبي لديك فكيف أذت على البعاد ، وكيف قلبي
وقوله :

هم علموه فصار بهجره ربّ نخذ الحق من معلّمه
وقوله :

من مثل قلبي أو من مثل ساكنه الله يحفظ قلبي والذي فيه

هـ - وحدة قصائده :

وقصائد البهاء متلاحمة النسيج ، مترابطة الأجزاء ، يتصل لاحقها بسابقها ، يصوغ القصيدة أو المقطوعة في موضوع ما ، فيتناول معاني هذا الموضوع ، معنى بعد آخر في اتصال من غير تنقل أو استطراد يشعر بالانفصال ، ومن أجل ذلك جاءت قصائده قصة متصلة الأجزاء في الموضوع الذي يتحدث فيه ،

وقد ختم بعض قصائده بقوله :

هذه قصتي ، وهذا حديثي ولك الأمر فاقتض ما أنت قاضي
وقوله :

إليك صلاح الدين أنهيت قصتي ورأيتك يا مولاي أعلى وأشرف

وفي ذلك ما يدل على اتجاهه في وحدة القصيدة :
وحسن تخلصه في قصائد المديح من النسيب إلى المدح يقرب مدائحه من
هذا الاتجاه .

و - أوزانه :

استقرأت شعر البهاء فوجدت مدائحه من بحر الطويل أو الكامل على حين
نظم قصائده ومقطوعاته الأخرى من البحور الخفيفة في الوزن غالباً ، ولعل
جنوح البهاء نحو السهولة هو الذي جعله يميل إلى هذه الأوزان الخفيفة ، وقد
جاء شعره صالحاً للغناء ، والتوقيع به على الصاجات بروحه الخفيفة ، وقافيته
المرقصة ، ونغمته المطربة ، وأوزانه الموسيقية ، وإنك لترى البهاء يسجل ذلك
حين يقول :

كلامي غنى عن الحون تزينه له معبد من نفسه ومخارق
تغنى به الندمان وهو فكاهة ويورده الصوفي وهو رقائق
وقد نظم في « الدوبيت ^(١) » كقوله في مجزئه :

يا من لعبت به شمول ما أطف هذه الشمائل
نشوان يهزه دلال كالغصن مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلام ، لكن قد حمل طرفه رسائل
ما أطيب وقتنا ، وأهنا والعاذل غائب وغافل

ز - أغراض شعره :

عالج البهاء زهير فنون الشعر ، فمدح ، وهجاء ، وفخر ، ورثاء ، وشكوى ،
وتغزل ، وعتاب ، ووصف في شعره الحمر ، والطبيعة ، وليالي الألس ، ومجالس
اللهو والخجون . . .

(١) الدوبيت : وزن من أوزان الشعر الغامض ، نقل إلى الشعر العربي على يد الشعراء المولدين
والخديين ووزنه في كل شطرة :

* فعلن متفاعلن فعولن فعلن *

١ - الغزل :

وهو الفن الذى غلب فى شعر البهاء على غيره من الفنون ، وقد ملأ ديوانه به ، وأكثر من قوله فيه ؛ حتى اشتهر ذلك عنه وهو يرى أن التغزل داعية إلى الشعر : بعد الحبيب هجرت الشعر أجمعه فلا غزال بلهين ولا غزلى والبهاء حين يتغزل بالمرأة ، ويتودد إليها يصف محاسنها وصفاً مادياً بعيد إلينا ذلك الوصف التقليدى القديم : فالمرأة غزال ، وقدها غصن بان ، ولحاظها سهام ، وعيونها نرجس ، وريقها خمر ، ووجهها بدر . . . إلخ .

والطابع الذى يمتاز به غزل البهاء تحدثه عن الأحوال التى تجرى بين العاشقين : من تشوق إلى اللقاء ، وسرور بالمواتاة ، وحيرة عند الهجران ، وغيرة عنيفة على المحبوب ، وتودد للاسترضاء ، وبكاء عند الوداع :

جاءت تودعنى ، والدمعُ يغلبها يوم الرحيل وحادى الين منصلت
وقفت أبكى ، وراحت وهى باكية تسير عني قليلاً ثم تلتفت
وأرق عند الفراق :

يا من لعين أرقيت أوحشها من عشقت
مذ فارقت أحبابها لها جفون ما التفت

يعبر عن مختلف العواطف التى تجرى بين المحبين ، وأحوالهم من الهجر واللقاء ، واللين والصدود ، والمواتاة والتنويل ، ويصوغ ذلك كله بروح مصرية خالصة ، وطابع مصرى خفيف الروح ، كما قال :

لطفت فى وصل الهوى كلمائى أين أهل القلوب والأشواق ؟
شئت السامعين در كلامى وتعلت أجيادهم أطواق

والمرأة عند البهاء زهير ستته :

بروحى من أسميها يستى فتنظر لى النحاة بعين مقت
يرون بأننى قد قلت لحناً وكيف وإننى لزهير وقى

ولكن غادة ملكت جهاني فلا لحن إذا ما قلت (سنى)
وهي روحه وحياته :

أنت روحى ، وقد تملكيت روحى وحياتى وقد سلبت حياتى
وحبيبته ، وسيدته ومولاه :

فيا مولاي ، قل لى أى ذنبٍ جنيتُ لعلنى منه أتوبُ

* * *

أمولاي ، إني فى هواك معذبٌ وحمام أبقي فى العذاب وأمكث ؟
وهو عبدها :

تقصر الألسنُ عن وصفها لو بالغت واستغرقت جهدها
إنَّ مملوكا مملكتُ مهجنى لا تدعنى إلا (يا عبدها)
وهو يكرر هذا المعنى ، واستخراجه من ديوانه لا يحتاج إلى عناء .

* * *

وله مذهب فى الغرام جعله فى الألفة ، والوفاء والعفة ، والخيرة ، والتجمل
بمكارم الأخلاق ، وقد ذكره جملة واحدة فى قصيدته التى يقول فيها :
مذهبي فى الغرام مذهب حتى ولقد قمت فيه بالبينات
وإن كان يذكره بالتفصيل فى مواضع مختلفات من قصائده التى يتودد فيها
إلى النساء ، ويشبب بهن أو يتغزل :

وهو لا يذل إلا للحب :

تذلل حتى رقى لى قلبٌ حاسدى وعاد عتولى فى الهوى وهو شافع
فلا تنكروا منى خضوعاً عهدتم فما أنا فى شىء سوى الحب خاضعٌ

* * *

وفى شعر البهاء كثير من ذكر الحسود والعاذل والواشى ، والرقيب ، وهم الذين
ذكرهم جماعة فى قوله :

حبيبي فيك أعدائي ضروب حسود ، عاذل ، واش ، رقيب

وهو حينئذ لا يبالي بالعواذل والرقباء كأن يقول :

أنا فيما أنا فيه وعذولي يعتب
أنا لا أصغى لما قا ل فيرضى : أو فيغضب

أو يقول :

أنا لا أبالي بالرقب ولا بمنظرة القبيح
غمز المحواجب بيننا أحلى من القول الصريح

وحيثما يهجو الرقيب ، ويصفه بأشنع الصفات :

ورقيب عدمته من رقيب أسود الوجه . والقفا والصفات
هو كالليل ليلي الظلام وعندى هو كالصبح قاطع اللذات

أما الرسول الذي يصله بالحبيب فهو بمنزلة الحبيب من الإعزاز والتقدير :

لقد أناني من الحبيب حبيب^١ ورسول^٢ الحبيب عتدى حبيب^٣

فالرسول يحىء ببشرى اللقاء :

جاء الرسول^٤ ببشرى منها بعياد الزياره

ويتخذة وسيلة إلى الاستعطاف :

فيا رسول^٥ ، تضرع في السؤال له عساك تعطفه فحوى ونشبه

* * *

وقد تردد الابهام بين البيض والسمر ، فهو يميل مرة إلى السمر ، وينفر عن

البيض ؛ لأنه لا يشبه لون المشيب :

لأن السمر في لون اللّمي والبيض في لون البهق

وأحياناً يغرم بالبيض ؛ لأن :

الحق^٦ أبيض أبلغ^٧ والحق أول ما اتبع

كما وجد الجمال في معتدلة القوام تارة :

فما طالت ، وما قصرت ، ولكن سكملة يضيق بها الإزار
قوام بين ذلك باعتدال فلا طول يعاب ، ولا اختصار

وفي الطويلة تارة أخرى :

وما عابها القدر الطويل ، وإنه لأول حسن للمليحة بادي

والقصر مع الملاحاة عنده غير معيب :

وما خصرها ألا تكون لمويلة إذا كان فيها كل ما يطلب الإلف

وقد عبّ من اللهو ما شاء حتى تعشّق عمياء :

قالوا : تعشقها عمياء فقلت لهم : ما شأنها ذاك في عيني ولا قدحا
بل زاد وجدّي فيها أنها أبدا لا تبصر الشيب في خدّي إذا وضحا

وقد هام بالحسن كما شاء له هواه فهو الذي يقول :

أذكر اليوم سلمي وغدا أذكر زينب

ويقول :

وإني لمشغوف بكل مليحة ويعجبنى الحصر المحصر والرّدْف

ومدت له أسباب الحجون والعبث حتى تغزل بالمذكر :

طلع العذار عليه حارس قصر نضىء به الخنادس
كالرمح مهزوز القوا م وكالقضيب اللدن مائس
وبروح يقظان الجفون ن تخالّه كالظي ناعس

مع أنه قد عاب على من يحب الغلمان :

أيا معشر الأصحاب ، مالي أراكم على مذهب والله غير حميد
فهل أنتم من قوم لوط بقية فما منكم من فعله برشيد
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم بعيد

٢ - المديح :

للبيهاء زهير زهاء ست وعشرين قصيدة في المديح : منها اثنتان في مدح الأمير علاء الدين جلدك ، وثلاث للأمير نصير الدين اللمطي ، وست لمجد الدين اللمطي ، وخمس للملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وواحدة لكل من الملك الكامل ناصر الدين ، والملك المسعود أبي المظفر ، والمنصور السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، والملك العادل أبي بكر بن أيوب ، والصاحب صفى الدين بن شكر ، أما القصائد الباقيات فلم يعين في ديوانه الممدوحون فيها ، ويبدو أنهم في مرتبة دون هؤلاء من السلاطين والأمراء .

وقصيدته في مدح الأمير جلدك من أوائل شعره ، يعتمد في القصيدة الأولى على المدح نصاً من غير تقديم بغزل أو تشبيب : إذ يقول :

لك الله من والٍ ولى مقرب فكم لك من يوم آخر محجب

وهي قصيدة مشحونة على هذا النحو من الجناس مثل :

يقصّر عن أمثاله كلّ قيصّر ويغلب عن أمثاله كلّ أغلب

وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة اثني عشر بيتاً . . . وهي قصيدة في غاية

السداجة ، مدح البهاء زهير ابن جلدك بصفات هي بالنساء ألصق ، ومن بها أحق وأجدر :

هو الزهر الغض الذي في كمامه أو اللؤلؤ الرطب الذي لم يشب

ولقد شبه الله الحور العين بأمثال اللؤلؤ المكنون ، فكيف يشبه ابن جلدك

— الموصوف بالشجاعة من قبل — باللؤلؤ ، واللؤلؤ الرطب ؟ ثم في قوله :

« لم يشب » ما يوحي بأن ابن جلدك أشبه بالعداء . ثم قوله بعد ذلك :

خليل عوجا بي على التدب جلدك أقضى لبانات الفؤاد المعذب

ففي ماجد طابت مواهب كفه فلا تذكر لي بعده أم جندب

فما صلة جلدك بأَم جندب ؟ وكيف يعوج خيلاه بالندب جلدك مثل
ما عاج امرؤ القيس وصاحباه بأَم جندب ؟
أما القصيدة الأخرى في (ابن جلدك) هذا فقد بلغت العشرين بيتاً
منها أحد عشر بيتاً في الغزل ، وتسع في المديح .

وقصائده في المديح ذات معان متكررة ، وصفات يخلعها على ابن جلدك ،
كما يخلعها على الممتلى ، وكما يصف بها السلاطين والملوك ، فهم بخارجي الجود
وغيوث . وهم أسود في الشجاعة وليوث . وهم ذوو حلم وذكاء وعزيمة ومضاء ...
يفتح قصائده بالغزل غالباً .

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أنفلاً
وما دام الغزل تنفلاً -- كما يقول -- فقد يعمد إلى المديح من غير تقديم . . .
وبعد أن يخلع على الممدوح صفات الشجاعة ، والكرم ، واليقظة ،
والعزيمة ، والقدرة . . . ينتقل إلى مدح آبائه وأجداده ، فالممدوح ماجد
الأصلا ، كريم الأصول ، ولربما تعرض إلى مدح أنجاله . . . ثم يحتم بذكر
شعره والفخر به . . .

والبهاء طويل النفس في المدح بخاصة ، ومدائحه معرض للاقتباس الأدبي ،
وميدان تظهر فيه ثقافته النحوية والشرعية والأدبية ، كما تتوارى نزعتة المصرية
في قصائده المديح على وجه العموم . . . فديح البهاء لا يدل على فنه ، ولا على
طبعه ، فهو يجرح إباءه ، ويحطم فنه ، ولا يتجلى فيه ما عرف به من روح
خفيفة ، وطابع لطيف . . .

والبهاء يستغل أسماء ممدوحه في المعاني التي يتناولها حين يمدح : فقصائده
لم تحسن إلا لأنها حوت أحرفاً من اسم الممدوح :

وما حَسُنَتْ عِنْدِي وَحَقُّكَ إِذْ غَدَتِ هِيَ التَّبَرُّ مَسْبُوكًا أَوْ الدَّرَّ مَتْنِي
وَلَا أَنْ جَرَّتْ مَجْرَى النِّسِيمِ لَطَافَةً وَلَا أَنْ حَكِي زَهْرَ الرِّيَاضِ الْمُعْتَمَا
وَلَكِنَّا حَازَتْ مِنْ اسْمِكَ أَحْرَفًا كَسَبَهَا جَمَالًا فِي النِّفُوسِ وَرَوْنَقًا

ومن هنا نراه يقول في الملك الكامل :

وأقسم لولا همّةٌ كامليّةٌ تخافت رجالٌ بالمقام وبالجر
فقل لرسول الله إن سميّه حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

وفي الصالح نجم الدين أيوب يقول :

فإليك يا نجم السماء فإنني قد لاح نجم الدين لي يتألق
الصالح الملك الذي لزمانه حسنٌ يتيه به الزمان وروني
وفي العادل يقول :

إلى العادل المأمول للدهر إن سطا به يتجلى ظلمه وظلامه
وهو في مدائحهم يحب أن يستوثق من صلة ممدوحه الدائمة على الرغم من أنه
ذكر بأن أشعاره لم تكن للاستجداء :

وما قلت أشعاري لأبغى بها الندى ولكنني في حلبة الفضل سابق
أأطلب خير الله من عند غيره وأسترزقُ الأقوامَ والله رازق ؟

يقرر هذا على حين يقول في مجد الدين اللطفي :

وإن بدأ التعى تلاها بمنلها فتزداد حسناً كالقريض مجنسا
ويقول :

يا من إذا بدأ الحميل أعاده فجصيله يجصيله موصول

فإذا كان مع الصالح نجم الدين أيوب اطمأن إلى منزله عنده فيقول :
وحللت عندك إذ حللت بمعقل يلقي لديه ماردٌ والأبلى
ونيقن الأقوام أني بعدها أبدأ إلى رب العلا لا أسبق
فرزقتُ ما لم ، يرزقوا ونطقنت ما لم ينطقوا ، ولحضتُ ما لم يكحقوا

وبعد : فهل بلغ الطموح عند البهاء زهير مبلغاً يطلب فيه هو الآخر
ولاية حين يقول في الناصر :

وبعض عطائيه المدائن والقُرى فن ذا الذى فى ذلك البحر يسبح ؟
وقد صدر فى قصيدته التى مدح بها الملك الكامل - عن روح دينية ،
واعتراز بموقف المسلمين فى معركة دمياط ، فجاءت هذه القصيدة معبرة عن
شعوره نحو هذا الانتصار . . . من غير أن يخلطها بما عهد عنه فى قصائد
المديح من استيثار من الصلة أو العطاء . . .

ويدعى فى مدائحه أنه يقصر مدحه على الممدوح لا يتعداه :

يقول فى مدح الأمير نصير الدين اللمطى :

إلى اليوم لم تكشف لخيرك صفحة فها هى مسئولٌ عليك ستارها
ويقول فى مجد الدين اللمطى :

وربّ قواف قد طويت برودها فلم أرضَ أن تغدو لغيرك ملبسا
ويقول فى الملك الصالح أيوب :

يا من رفضتُ الناس حين لقينه حتى ظننتُ بأنهم لم يخلقوا
قيدتُ فى مصر إليك ركائبي غیری بغرب تارة ، ويشرق

♦ ♦ ♦

ونهج مدائحه - غالباً - على النهج الذى ذكره فى قوله :

نسبٌ كما رقى النسيم من الصبا وغازله زهرُ الرياض المفتح ؟
ومدحٌ يكون الدهرُ بعض رواته فيمسى وبضحى ، وهويسرى ويسرح
وكما يقول فى الملك الناصر :

غزلٌ ومدحٌ بتُ أغرق فيهما كالبحر مازجه الزلال السلسلا
ولما وقع بينه وبين مجد الدين اللمطى جفوة ، جعل مدحه مزيجاً بالغزل
والشكوى والعتاب إذ يقول :

نسبٌ كما يهوى العفافُ منزّه ومدحٌ كما تهوى المعالي معظم
وشكوى كما رقى النسيم من الصبا وعتبٌ كما انحل الجماع المنظم

* * *

وغالباً ما يختم مدائحهم بالفخر بشعره والثناء عليه ، قال في ختام مدحة ابن جلدك :

أنتك القوافي وهي تحسب روضةً	لما ضمنته وهو قولٌ مزخرف
ولو قصدت بالذم شائيك لا غتدى	وحاشاك منه قلبه يتنظف
تقلدُ عاراً ، وهي درٌ منظم	وتليس حزناً ، وهي بُردٌ مفتوح
وتصلي جحيماً ، وهي في الحسن جنة	ونسقى دهاقاً ، وهي صهباء فرقف

* * *

ويعرض في مدائحهم بالشعراء السابقين ، ويدعى لنفسه القوق عليهم ، يقرر ذلك مع زهير بن أبي سلمى حين يقول مادحاً الأمير نصير الدين اللمطي :

هذا زهيرك لا زهيرُ مزينة وأفالك لا هرمأ على عيلاته
ويقرره مع الفرزدق وجريز ؛ إذ يقول عن قوافيه :

إذا ذكرت في الحى أصبح آيساً فرزدقها من وصلها وجريزها
ثم يذكر طرفة بن العبد والمتلمس فيقول :

سيرضيك منها ما يزيدُ على الرضا ويستبعدُ ابنَ العبد والمتلمسا
كما يذكر النابغة والحطيئة حين يقول :

مولاي قد أعديتها لك كاعباً عذراءَ تبدو عُدرةً وتنصلا
لو أنها ممن تقدم عصره صفت زياداً أن يقول وجرولاً

ثم يدعى لنفسه إمارة الشعر ، إذ يقول :

ولناس أشعارٌ تقال كثيرةٌ ولكن شعري في الأمير أميرها

* * *

٣ - المهجاء :

كان البهاء زهير مرهف الإحساس ، لطيف الروح ، دقيق المشاعر ، بأنس
للمعاشرة الكريمة ، وينفر من التصرف الشاذ ، ويأبى مجانبة الذوق ، ويضيق
صدره حرجاً بالخروج عن أصول اللياقة .

ومن أجل ذلك هجا البارد الثقيل من الناس ، وكره أن يلزمه - على الرغم
منه - جاهل مختال ، أو منافق كذوب ، أو جليس أحمق ، أو محدث ثرثار ،
أو زائر غبي ، أو رقيب عدول ، أو مدّخ للعلم وهو جهول ، أو صاحب خيرون ،
أو مغتاب حقود ، أو مؤمل يخيب الراجين ، أو متحفظ في مجالس اللاهين ،
ورجاء ألا تكون له صلة بأحد من هؤلاء . ولذعهم بالتهكم والمهجاء :

أرى قوماً بليت بهم نصيبى منهم نصيبى
فهم من ينافق لى فيحلف لى ويكذب بى
وأكثر ما أتعبه ثقل الثقلاء فيقول :

وثقيل كأنما ملك الموت قر به
ليس فى الناس كلهم من تراه يحبه
لو ذكرت اسمه على ما ساغ شربه
أويقول :

وثقيل ما برحنا نتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا جأنا أثقل منه

وقد تكرر هجاؤه للثقلاء فى مواضع كثيرة من ديوانه . . . وجاءت أهاجيه
فى الأعم الأغلب مقطوعات صغيرة ، خفيفة الروح ، فطرية النزعة ،
خالصة التهكم ، لاذعة السخرية ، نافذة السهام . . .

٤ - الفخر :

وفخر البهاء أكثر ما يكون بشعره ، فلا قائل غيره :
بعمرك ما فى القوم غيرى قائل وهذا مجال للجياذ وميدان

وشعره يستميل المسامع بفتونه ، ويستهيى المخدرات : ويتغنى به الندامى ،
ويستشهد به المتصوفون ، وتقضى به الحاجات ، ويستعطف به العشاق ، فيه
راحة للروح ، ومسلاة للقلوب ، ومصرف للهموم .

كذلك ! يفخر البهاء بحبه ، وأنه دمى الخليفة ، رفيق الحاشية . وفي
لا يحون :

أنا في الحب أطف الناس معنى دمى الخلق ، ذو حواش رفاق
أعشق الحسن والملاحة والظفر فى . وأهوى محاسن الأخلاق
لم أنحن في الوداد قط حبياً فينادى على في الأسواق
وهكذا كان فخر البهاء . فخر بمذهبه في الأدب والحب ، فكان له في
هذين غنى أى غنى عن الفخر بالأحساب والأنساب .

٥ - الوصف :

أحب البهاء مصر ، واهتزت شاعريته لطبيعتها . وهتف بها واصفاً ،
وتحدث في وصفه عن النيل ، وأمواجه ، والمراكب فيه ، والبحر ، والأزاهر ،
والأثمار ، والدوحات ، والطيور ، والمروج ، والنواعير ، وتراب مصر وحصاءها ،
وأصاها . وأكثر ما يتحدث عن ذلك وهو مغرب ، فهو حينئذ يحن إلى مصر
ويذكر مجاليها وأيامه ولياليه فيها .

وكان للبهاء في صباه مجالس لو اتخذها بالجيزة والجزيرة ، ودعا إليها
خلصاءه وخلطاءه ، فوصف هذه المجالس ، وما يحيط بها من طبيعة ضاحكة ،
وما يقوم فيها من طعام وشراب ، وتفنن في وصف الحمر ، ولطيفها ، وتعتقها
ولإشراقها ، ورقها ، وسقاتها ، وفعلها في الشاربين ، والغناء والمغنين ، ولم يفته
— بعد ذلك — أن يتحدث عن الطهارة ونظافتهم ، والقصور التي تهدر على الحمر
وتفور

وتحدث البهاء عن ليالى الأنا والوصال ، ووصف سرعة مرورها ، وحلاوة

المسامرة فيها ، أما الليالى التى يفتقد فيها المؤنس المسامر فهى بطويلة ذات قسوة وإملال . . .

وقد يخلط البهاء وصفه بالدعابة ، ومن ذلك مقطوعة له فى وصف بخلة عبقاء ، وأخرى فى وصف فرس هزيلة ، كما قد يخلط الوصف بالتهكم والسخرية والهجاء ، وذلك فى قصيدته فى وصف رجل ذى الحية كبيرة ، والتى يقول فى أولها :

وأحمق ذى الحية كبيرة مشتهره

٦ - تشوقه وحنينه :

فارق البهاء زهير الحجاز فاشتاق له ، وحن إليه ، ثم أحب مصر ونسب إليها ، وامتزجت بخاطره ، وجرت فى عروقه فكان مصرياً خالص المصرية ، وكما تجلت مصريته هذه فى ألفاظه وتعايره ، تجلت فى أحاسيسه وهواجسه ضميره ، بل قد تكون هذه داعية إلى تلك . . .

كانت نفس البهاء تنازعه عند الرحيل وتغالبه ، أيرحل عن مصر ، أينادر طيب نعيمها ؟ أينرك مجلس الحسن ، وقرة العين ، وبهجة الفؤاد ؟ أأرحل عن مصر وطيب نعيمها وأى مكان بعدها لى شائق ؟ وهو دائم الحنين إليها مغترباً عنها ، لا يرى بلداً من البلاد يفوقها فى رفاهة العيش ، ومظاهر الجمال :

ولم أرَ مصرًا مثلَ مصرٍ تروقنى ولا مثلَ ما فيها من العيش والخفض ويرسل وهو فى غربته لحنًا حزينا ، ويبعث بالقريض إلى مصر شوقاً وحنيناً :

أيام مصرٍ ليتها فُديتُ بأيامى البواقى

ويدعو لها بالسقيا ، ويذكر تراها وحصباءها ، ويتشوق إلى أهلها فى قصيدته التى أولها :

سنى وادياً بين العريش وبرقة من الغيث هطالُ الشايب هتانُ

٧ - الرثاء :

ولشاعرنا في الرثاء سبع مقطوعات ، عدتها ثمانية وثمانون بيتاً ، وهي في رثاء بعض أصدقائه دون الملوك ، وهنا يعرض سؤال : أين الملوك الذين عاشرهم جميعاً ، ومدحهم جميعاً ، وشهد موتهم واحداً بعد الآخر ؟ إن كان الملك الصالح قد غضب عليه وصرفه من خدمته في رئاسة ديوان الإنشاء فأين رثاء الكامل ، والعاذل ، والناصر ؟ وأين اللطيفون جميعاً ؟ لقد كان البهاء زهير طویل العمر ، عاش خمساً وسبعين سنة ، وعاصر الدولة الأيوبية في مختلف أدوارها ، لم يرث إلا صديقاً له هو فتح الدين عثمان بن حسام الدين والى الإسكندرية ، وكان قد توفي بآمد سنة ٦٣١ هـ ، ثم رثا أنخأ لابن مطروح ، ثم رثا شخصاً يسمى علياً لم يذكر في الديوان صلته به ، ثم المقطوعات الباقية لا يعرف فيمن قبلت ، فهل شغل عن اللطيفين بالملوك ، وهل شغل عن الملوك بالملك الصالح أيوب ؟ وهل شغله عن الصالح طرده من خدمته ؟ ثم أين رثاء ابن مطروح الذي مات قبل البهاء بسبع سنين ، وكانا يتعاطفان ويتوادان حتى إن البهاء قال - وقد علم بمرضه :

لقد ضاعفت يا روجي لروحي الهم والنصبا

وإذا كان هذا يقال في المرض ، فكيف لا يرثيه ؟ !

ويزداد الموقف غموضاً إذا علمنا أن ابن مطروح طلب منه أن يندبه ويكيه في قوله :

إذا أنا مت فاندُبني فربّ أخ أنخأ ندباً
وقل مات الغريب فأرّ ن من يبكي على الغربا

فهل الديوان منقوص ؟ وهل انطواء البهاء في آخر أيامه على نفسه في عزله

وسوء حاله ورقته صرفه عن قول الشعر حتى في واجب العزاء لأوفي الأوفياء ؟
وأين أوائل أبيامه ؟

وربما كان لطبيعة البهاء ونظيرته الفرحة إلى الحياة ، ومعرفته بها ، وأنه لا يجدى
مع الموت رثاء ، ولا يرد الميت بكاء ، ربما كان شيء من ذلك يعطل لنا هذا
الاتجاه عند البهاء .

ورثاء البهاء فيه الرقة ، وفيه الحسرة والأسى ، كما قال :
أبكبك بالشعر الذي قد رق حتى صار دمعاً
ولكنه لا يبكيك ولا يسليك ، تتكرر معانيه في رثائه . ويدعو للقبر بالسقيا
وقد يرسل أحياناً الموعظة فيها التصبر ، وفيها العزاء :
وما الناسُ إلا راحلٌ وابنُ راحلٍ إلى العالم الباقي من العالم الفاني
ولا فآينَ الناسُ من عهد آدم ومن عهد نوح ثم منه إلى الآن ؟
وأفضل منه قول أبي نواس :
ألا كل حي هالكٌ وابنُ هالكٍ وفو نسب في الهالكين عريق

* * *

وهناك معنى يكرره البهاء ، وهو استنكار بقاءه بعد وفاة من يعزيه ، وأنه
يرمى نفسه بالغمر حيناً ، ويعتذر حيناً بأن الموت ليس فيه وفاء ، وهيئات أن يموت
إنسان لإنسان !! :

لقد خنته في الود أن عشت بعده وما كنت في ودّ الصديق بخوان
ويقول :

أتمضي أنت مفرداً وأبقي ؟ لقد غدرتك نفسك يا وفي
أو يقول :

وما لي أدعى أني وفي ولست مشاركاً لك في بلاكاً
تموت وما أموت عليك حزناً ؟ ! وحتى هواك خنتك في هواك

ثم يقول في هذا المعنى . ويعتذر من عدم الوفاء :
وما كنتُ عنه أملكُ الصبرَ ساعةً فما صارَ أنساني عليه وأقصائي
هو الموتُ ما فيه وفاءٌ لصاحب وهياتَ إنسانُ يموتُ لإنسان
إلى غير ذلك من المعاني التي سبقه بها الشعراء وليس فيها من جديد :
فهو يذكر التصبر ، والنهي عن الجزع ، وأنهم دفنوا يوم وفاته المعروف ، وأن
تخيال الميت ماثل أمامه لا يفارقه ، وأنه طاب حياً وميتاً ، وأنه مات بموته
المسرات :

فبعدك ليس يُفَرِّحُنِي بِشِيرٍ وبعذك ليس يحزني نَحْيٌ
تَكْدِرُ فيك صافي العيش لما عذمتك أيها الخلق الوفي

* * *

وهو يكاد يشبه في رثائه الناديات النائحيات في المآتم :
« واقلة أنصاري ! يا منتهى سرلى ! يا مشتكى حزني ! يا حافظ أسراري ! »

* * *

وإذا كان الأول يقول :
أما القبور فإنهن أوانس من بعد موتك والديار قبور
فإن البهاء يقول :
الدار من بعد النوى قد أصبحت في وحشة يا مؤنس الدار
وهذا مثل من أمثلة سبق البهاء في معناها الشعراء السابقون .
أما الذي انضرب به في هذا الباب فهو ذلك « الوفاء » الذي نلمحه في رثائه ،
وقد قدمت أبياتاً هي مظهر ذلك الوفاء .

٨ - متفرقات :

في المشيب :

وللبهاء زهير بضع قصائد في المشيب ، يتحسر فيها على شبابه الراحل ،
وتراءى أمامه أطيايف الماضي بما فيه من جمال الحسان ، وكأس اللذات ،

فيهنز لها ، ويهيم بها ، ويحن إليها ، يدفعه إلى ذلك كله قلب لا تزال فيه بقية
من شمائل المرح الطروب ، ولكنه يكتن صبايته ، وينيب إلى ربه ، ويلتمس
منه العفو والغفران . . .

في النصيح والإرشاد :

وللبهاء زهير مقطوعات وأبيات في النصيح والإرشاد ، أوحى بها إليه تجاربه
الكثيرة ، وخبراته المتعددة في عمره المديد ، واختلاطه بطبقات الناس ، من
العامة والملوك ، والمرؤسين والرؤساء ، وتعامله مع هؤلاء وهؤلاء ، وهو أحياناً
يمزج نصحه بالحكمة يشتقها من مقتضى الحال ، ويرهن على ما يسوقه من نصح
بما يناسب المقام ، ومن أمثلة شعره في هذا الباب قوله :

توق الأذى من كل نذل وساقط فكم من تأذى بالأراذل سيد
ألم تر أن الليث تؤذيه بقية ويأخذ من حد المهند مبرد

التصوف :

وكان في البهاء زهير نزعة صوفية تتمثل في الابهال والرضا وطمأنينة النفس ،
والتسليم لما تأتي به الأقدار ، وله مقطوعات استعمل فيها ألفاظ الصوفية
ومصطلحاتهم : كالخطرات ، والفتوح ، وصاحب الوقت ، والإخلاص لله ،
والصحبة فيه .

(ح) شعره صورة حياته :

سجل البهاء زهير في شعره نبضات قلبه ، وخلجات عواطفه ، كما صور
حياته تصويراً واضحاً في يسر ، وسهولة ، ولطف ، تحدث في شعره عن أيام
صباه بالحجاز ، وظل به لهجاً بذكر أيامه في حنين واضح ، وشوق ملح ، وقد
أفرد في ديوانه قصيدتين حجازيتين ، إحداهما مطلعها :

أحنّ إلى عهد المحصب من منى وعيش به كانت ترفاً ظلالة

والأخرى مطلعها :

سقى الله أرضاً لست أنسى عهدها ويا طول شوقى نحرها وحنينى
ولم يكن مظهر الحجازية عند البهاء هاتين القصيدتين فقط . كيف وهو
الذى يقول :

مقيم بقلبي - حيث كنتُ - حديثه وباد لعيني حيث سرتُ خياله
وإذن ليهتف بالحجاز ، ويحالى الحجاز فى خلال قصائده . وهكذا فعل ،
فاشتق كثيراً من استعاراته ، وتشبيهاته ، وبديعياته من ألفاظ حجازية كأن
يقول :

ويا حرم الحسن الذى هو آمن" وألبابنا من حوله تتخطف
أو يقول :

يا منسك المعروف أحرم منطى زماً ، وقد لبّاك من ميفاته
حتى ذكر الحجاز فى الغزل ، وذلك إذ يقول :

يا نحصره ، يا ردفه من لى بنجد أو تهامه ؟
وفى المدح حيث يقول :

وأقسم لولا همة كاملية تخافت رجال بالمقام وبالبحر
وهكذا تراءى محالى الحجاز أمام البهاء ، فيهتف بها مادحاً ، أو منغزلاً
أو مشوقاً مؤملاً

* * *

كذلك سجل البهاء فى شعره الفترة التى أقامها فى الصعيد متطلعاً إلى غايات
المجد ، وتخدمة الملوك ، يقول :

ويرتاح قلبي للصعيد وأهليه وعيش مضى لى عندكم ومقام
وأهوى ورود النيل من أجل أنه يمرّ على قوم لدّى كرام

ولم يكن حينئذ بالرجل ذى المكانة حتى يؤبه به . . . كان يرد عن الأبواب
بخشونة الخدم والحجاب :

فألى ألقى دون بابك جفوةً لغيرك تعزى لا إليك ، وتنب
أردّ بردّ الباب إن جئت زائراً فيا ليت شعري ! أين أهلٌ ومرحب ؟
ويستمر البهاء فى اتصالاته بالحكام حتى يتحقق أمله المرجو ، فيقول
مخاطباً الملك الصالح :

وقد قربَ الله المسافة بيننا فيها أنا يحويني وإياه إيوان
وفى هذه المرحلة يتسم الزمان للبهاء ، وتقبل الدنيا يبهرجها وزينتها عليه ،
فيكون صاحب عطاء كما يكون صاحب لهُو وغناء ، وطرب ونساء ، فحشرب
وطرب ، وكانت له مجالس دعا إليها .

ولأنك لتجد فى شعر البهاء صورة صادقة لعواطفه وأحاسيسه غريباً عن مصر ،
ملتحقاً بخدمة الملك الصالح ، وراحلاً متقللاً بين نابلس ، وحلب . ودارا ، وأمد ،
وذكر وهو فى البلاد الشرقية شكواه من ارتحاله الذى لا يفتر :

إن أمرى لعجيبٌ لا يرى أعجب منه
كلُّ أرضٍ لى فيها غائبٌ أسألُ عنه
أينَ من يشكو من الب ين كما أشكوه منه ؟

ثم يشاء الله أن تهدأ نفس البهاء المشوقة ، فتقبل الأيام على الملك الصالح ،
ويعود إلى مصر ملكاً على عرشها ، ويعلو نجم البهاء ، ويؤمّر على ديوان
الإنشاء ، وفى ذلك يقول :

وسفرت للملك العظيم (م) الشأن والقدر الرفيع

ويكون لذوى الحاجات نعم المعين ، ثم تدور الدائرة عليه ، فيعود إلى عزلة
وقد كبرت سنه ، وتجتمع عليه من أحداث الزمن وتقدم السن ما يجعله يعود إلى إرسال
الشكوى والأنين باللحن الحزين ، وتجبره الأيام على بيع كتبه ونقائسه ، وما أشد

وقع ذلك على البهاء !! أليس هو الذي قال :
 أتبعُ من وعد بلا وفاء ومن زوال النعمة الحسناء ؟
 ويلحقه الإعسار فيقول :
 وصاحب أصبح لي لائماً لما رأى حالة إفلاسي
 قلت له : إني امرؤ لم أزل أفنى على الأكياس أكياسى
 ما هذه أول ما مرّ بي كم مثلها مرّ على راسى
 وفى السبعين يقول :

نزل المشيب وإنّه فى مقبرتي لأعزّ فازل
 بالله قل لي يا فلان (م) ولى أقول ولى أسائل
 أتريد في السبعين ما قد كنت في العشرين فاعل ؟!

* * *

ثم تطوى هذه الصفحة بما فيها من جد ومجون ، ولهو ، وفيتون ، وكان آخر
 ما خط فيها على ما هو منقول :

ما قلت أنت ، ولا سمعت أنا هذا حديث لا يليق بنا
 إن الكرام إذا صحبتهم ستروا القبيح ، وأظهروا الحسن

(ط) شعره صورة لعصره :

ويلقى شعر البهاء ضوءاً على الحياة فى عصره : فهو يشير إلى كثير من
 العادات الدينية ، وأحوال المجتمع : كالتدور للأولياء فى أضرحتهم بالمساجد ،
 وكالحديث عن طائفة الرفاعية وما عرف عنهم من خوض النيران ، وتسييح
 المؤذنين فى الأسفار ، وعن مظاهر الاحتفال فى عهده من دق الطبول ، ورفع
 الرايات ، وعن حجاب الرؤساء وخشونتهم ، وعن اللعب بالنرد ، والخط على
 الرمل والتنجم لمعرفة ما يكنه الغيب ، وعن المرائين الذين يظهرون الزهد وهم على
 الدنيا متكالبون ، وعن المرعوسين الذين يبدلون جهودهم ورؤسائهم عنهم غافلون
 إلى غير ذلك من شئون المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، ومن أمثلة ذلك قوله :

يا أيها الباذلُ مجهوده في خدمة ، أفّ لها خدعه !
 إلى متى في تعب ضائع بدون هذا تأكل القمه !
 تشقى ، ومن تشقى له غافل كأذكّ الراقص في الظلمه

٣ - منزلته

البهاء مذكور في التاريخ بدماثة خلقه ، كما هو مشهور بعذوبة لفظه ، وسهولة أسلوبه ، ووضوح معناه ، ذكره ابن خلكان فقال عنه إنه : « من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظاماً ونيراً وخطاً ، ومن أكبرهم مروءة » ، وقال في موضع آخر : « وكنت يومئذ^(١) مقيماً بالقاهرة ، وأود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ، ورأيت فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة السجايا . . . »

ووصف ابن خلكان شعر البهاء فقال : « وشعره كله لطيف ، وهو كما يقول : "السهل الممتنع" . وإن كان ذلك الحكم لم يرض الياضي النجفي صاحب "مرآة الجنان وعبرة اليقظان" فقال في شعر البهاء : لم أكتب شيئاً عنه ، ولا أعجبنى ، ولا قوى عزى الضعيف » . وليس عجيباً أن تتفاوت الآراء في المذهب الشعري للبهاء ، وإن كان الأعم الأغلب من النقاد يكادون يشتون على مذهبه في الشعر من القدامى والمحدثين على السواء :

يقول هيار في كتابه الأدب العربي :

« إن شعر البهاء يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المروءة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف » .

ويقول بلعر : إن شعر البهاء زهير يشابه الشعر الأوربي ، وأكثر أفكاره تحاذي أفكار الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر .

(١) أواخر ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق :
« لست أعرف شاعراً نقخت مصر فيه من روحها ما نفخت في البهاء زهير ،
فهو مصري في عواطفه ، وفي ذوقه ، وفي لهجته إلى الغاية القصوى » .

٤ - تأثره

تأثر البهاء زهير بألوان الثقافة الشائعة في عصره ، وقد بيّنت قبلاً تأثره
بالمثنوي وأبي نواس ، وقد صاغ البهاء بعض ما قال في الغزل في أسلوب قصصي ،
وأراه متأثراً في ذلك بعمر بن أبي ربيعة ، كما تأثر به في تغزله بنفسه أحياناً ، وذلك
حين يقول :

وقائلة لما أردت وداعها حبيبي ! أحفأ أنت بالبين فاجمي ؟
فيا رب لا يصدق حديث سمعته لقد راع قلبي ما جرى في مسامعي
وقامت وراء السر تبكي حزينة وقد نقبت بيننا بالأصابع

ويذكر ابن حجة الحموي في خزنة الأدب ما يدل على تأثر البهاء في
غرامياته بالحاجري والتاعفري حيث نصح الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي
بمطالعة ديوانهما^(١) .

وفكاهات البهاء ودعاياته وروحه المصرية تذكرنا بفكاهات الشعراء في
العصر الفاطمي الذي مثلوا بشعرهم الروح المصرية ، ومزاج المصريين ، وميلهم
إلى الدعابة والتنكيت^(٢) .

كذلك يعد ولوع البهاء بألوان البديع امتداداً لولوع هؤلاء الشعراء
الفاطميين^(٣) .

(١) « خزنة الأدب » لابن حجة الحموي : ٨ .

(٢) من أمثلة الدعابة في الشعر الفاطمي ما قاله الخليل بن الخطاب (ت ٥٩١ هـ) يشكو طبيباً :

وأصل بلقي من قد غزائي	من السقم الملح بعسكريين
طبيب طبه كغراب بين	يفرق بين عافتي وبني
أبي الحمى وقد شامت وباحت	فرد لما الشهب بسخنين
ودبرها بتدبير لطيف	حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم	نصيرها بخلق مرتين

(٣) « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » لشوقي ضيف .

٥ - تأثيره

يذكر ابن خلكان أن ديوان البهاء كان كثير الوجود بأيدي الناس^(١) ، ومعنى هذا تقدير الناس لشعر البهاء ، وشغفهم به ، وبعد تأثرهم بطريقته ، ونص ابن حجة الحموي صريح في تلمذ علي بن سعيد الأندلسي على طريقة البهاء الغرامية ، واسترشاده به في سلوكها ، وفي البيتين الآتين لابن سعيد هذا يترق مذهب البهاء ، يقول ابن سعيد :

واطول شوقى إلى ثغورٍ ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخذتُ الذى تراه يعذبُ من شعري الرقيق^(٢)

وكان الأندلسي يعرض على البهاء شعره ، ويصلح البهاء عليه ما يقول^(٣) . . .
ومن نسج على منوال البهاء في استحمال المعاني البلدية ابن نباتة من شعراء مصر في القرن الثامن الهجري ، حيث يقول :

يا مشتكى الهمِّ دعه وانتظرْ فَرَجاً ودارِ وقتك من حينٍ إلى حين
ولا تعاندْ إذا أصبحتَ في كدرٍ فلانما أنتَ من ماءٍ ومن طين

ولا يزال البهاء حتى هذا الزمان مذكوراً بمذهبه في التقريب بين الفصحى والعامية ، وتطويع اللغة الدارجة لأداء المعاني ، والتعبير عن مختلف العواطف مع تصحيح لغة الحياة العادية على مقتضى قواعد العربية .

(١) « وفيات الأعيان » : ٨٣/٢ .

(٢) « خزائن الأدب » لابن حجة الحموي : ٨ .

(٣) المرجع السابق .

٦ - روحه المصرية

ظهرت الروح المصرية في شعر البهاء : تجلي ذلك في الكلمات المفردة ، كما تجلت في الشطر من البيت ، وفي البيت ، وفي البيتين ، والمقطوعة ، وفيها يلي بعض الأمثلة بذلك :

١ - في الكلمة :

(١) الحديد والخلج

ذهب الحديدُ من الشبا ب فكيف ظنك بالخلج

(٢) مستهتر بمعناها العامي

بعض ما ألقاه منه أنه لا يزال الدهر في مستهترا

(٣) سلمت ، ودمت

سلمت من كل ألم ودمت موفور النعم

(٤) كفور

فأضحى بها من خالف الدين خائفاً وضاق على الكفار منها كفورها

(٥) زبون

وحقكم عندي له ألف طالب وألف زبون يشتره بزائد

(٦) مشفق بمعنى ناصح وشفيق

ومالي أخفى عن حبيبي ضروري وما هو إلا مشفق ونصيح

(٧) اليك - والشيش

فاليك في الرد وهو محقر خير من الشيش عند حاجته

(٨) صدفة بمعنى المصادفة

عسى نظرة من حسن رأيك صدفة تسوق إلى جذبي بها الماء والكلا

(٩) وحياتكم

أحبابنا وحياتكم سرّ الهوى عندي مصون

وفي بعض هذه الكلمات خطأ لغوي مثل كلمة (صدفة) و (مشفق) و (مستهزئ) ، ولكنها مصرية البهاء زهير هي التي أوقعته في مثل هذه الأخطاء ، شأن ما يجري على أقلام بعض الكتاب والشعراء من الأخطاء اللغوية في هذه الأيام . . .

ب - الروح المصرية في شطر البيت :

(١) نقطع الطريق بالحديث

تحت مطيئنا الأشواق منا ونقطع بالأحاديث الطريقا

(٢) ده شيء ما مرش بيالى

ولكن بدا منه جفاء فساءنى وذلك شيء لم يمرّ بيالى

(٣) الذنب ذنبى

أشكو لك الشوق الذى لا قبته والذنب ذنبى

(٤) قلبي عندك

قلبي لديك فكيف أذ ست على البعاد وكيف قلبي ؟

(٥) زى الضرتين

نحن كما الضرتين فى معركة أدرع الصبر عند لقيائها

(٦) حفظها : زى الفاتحة ،

وغادة بوصلها مساحمة تحفظُ ودى مثل حفظ الفاتحة

(٧) بعض ما عندى

فكل ما عندك من وحشة فإنها بعضُ الذى عندى

(٨) أسكنك في عيني - أفرش لك ندى

ويا ليت عندى كل يوم رسولكم فأسكنه عيني ، وأفرشته ندى

(٩) لا شغله ولا مشغله

أصبحتُ لا رشغل ولا مزوعة مذنباً في صفة خامره

(١٠) مين يقول ؟ ومين يسمع ؟

وكم قلت ولكن أين من يسمع ، أو يدرى ؟

(١١) سأذكره بخير - بالله اكتبوا ذاك الحديث

صديق لى سأذكره بخير وأعرفُ كنه باطنه الحيثا
وحاشا السامعين تسال عنه وبالله اكتبوا ذاك الحديث

(١٢) على العين والراس

وجاهل أصبح لى عاتبا تلتُ على العين والراس

(١٢) اعمل حسابك

احسب حسابك فى الذى تنويه من قبل الشروع

(١٣) امشى على عيني لك ورامى

حق على ، وواجب لك أنى أمشى على عيني إليك وراسى

(١٤) احنا فى الحقيقة واحد

أنا فى الحقيقة أنتم هذا اعتقادى فيكم

(١٥) احنا اخوان — مافيش تكليف

أشكو إليك لأننا أخوان سيان شأنك في الخطوب وشافى
سقط التكلف والتجمل بيننا فالأهل أهل ، والمكان مكانى

(١٦) الحيلة لها ودان

لمالك يدري حديثاً بيننا أحد فهم يقولون : للحيطان آذان

(١٧) النوم سلطان

من لى بنوى أشكو ذا السهاد له فهم يقولون : إن النوم سلطان

(١٨) ما الحيلة ؟ قل لى ما العمل ؟

مولاي ! ما الحيلة ؟ قل لى : ما العمل ؟ إن صح ما قد ذكروا فلا تسلم

(١٩) نهارنا أبيض

فمفضل فيومنا بك إن زرتنا أغر

(٢٠) العقل زينة

ما العقل إلا زينة سبحان من أخلاك منه

حـ — الروح المهرية في البيت الواحد :

(١) رأيتك قد عبرت ولم تسلم كأنك قد عبرت على خرابه !

(٢) رجعتا مثل ما رجنا ولم نربح سوى التعب

(٣) وليس يخرج حتى تكاد تخرج روحى

(٤) والله إنا بنخير ما دمت أنت بنخير

(٥) فاحفظ لسانك تسترخ فلفد كفى ما قد جرى

(٦) ليت نحدثى كان أرضاً لك فى طول الطريق

د - التعابير المصرية في البيتين والمقطوعة :

(١) لعن الله صاعدا وأباه
وبنيه فنازلاً واحداً ثم فصاعداً واحداً

* * *

(٢) ملكتموني رخيصةً فأنحطُ قدرى لديكم
فأغلق الله باباً دخلتُ منه إليكم
وحققكم ما عرفتم قدر الذى فى يديكم
حتى ولا كيف أنتم ولا السلام عليكم

* * *

(٣) لعن الله حاجة أبلجأتنى إليكم
وزماناً أحوالى فى أمورى عليكم
فعمسى الله أن بخلصنى من يديكم

الفصل الرابع

منتخبات من آثار البهاء زهير

١ - البهاء زهير الكاتب

بعث ملك الفرنجة بكتاب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ينلوه فيه بالويل والثبور قبيل معركة دمياط فعهد السلطان إلى البهاء زهير في كتابة الجواب ففعل .

رسالة ملك الفرنجة

أما بعدُ : فإنه لم يخفَ عليك أننى أمينُ الأمةِ العيسوية ، كما أنه لا يخفى علىَّ أنكَ أمين على الأمةِ المُحمدية .

وغيرُ خافٍ عليك أن عندنا أهلَ جزائرِ الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقُهم سوقَ البقر ، ونقتلُ الرجالَ ، ونرملُ النساءَ ، ونستأثرُ بالبَناتِ والصبيان ، ونخلى منهم الديارَ ، وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلتُ لك النصيحةَ إلى الغايةِ والنهاية ، فلو حلفتُ لى بكلِّ الأيمان ، وأدخلت على القُسُس والرهبان ، وحملتُ قُدَامى الشمعَ طاعةً للصليبان ، لكننتُ واصلاً إليك ، وقائِلكَ فى أعزِّ البقاعِ عليك ، فإما أن تكون البلادُ لى هدية حصلت فى يدي ، وإما أن تكون البلادُ لك والغلبة على ، فيدُك اليمنى ممتدةً إلى ، وقد عرفتُك ، وعرفتَ ما قلتُ لك ، وحدرتُك من عساكرِ حضرت فى طاعنى تملأ السهلَ والجبل ، وعددُهم كعددِ الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسيايفِ القضاء .

جواب السلطان كتبه الجاه زهير

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله
وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهتد فيه بكثرة
جيوشك وعدد أبطالك ، ونحن أربابُ السيوف ، وما قُتل منا قرنٌ
إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغٍ إلا دمّرناه ، فلو رأيت عينك أيها المغرورُ
حدّ سيفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا
ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعص على أناملِك بالندم ،
ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهناك نسيءُ
الظنون ، « وسيعلم الذين ظلموا أي مقلبٍ ينقلبون » . فإذا قرأت
كتابي هذا فتكون منه على أول سورة النحل : « أتي أمر الله فلا
تستعجلوه » ، وتكون أيضاً على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد
حين » وتعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . وقول الحكماء : « إن
الباغي له مصرع » . وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك . والسلام » .

٢ - البهاء زهير الشاعر

(١) الشاعر القوي :

كنى الله دمياط المكاره

« رأى البهاء في انتصار الملك الكامل فاصر الدين أبي الفتح محمد بن الملك للملك أبي بكر بن أيوب على الإفراج وانتزاعه منهم ثغر دمياط - رأى في ذلك عزة للدين ، وفخراً للعرب أجمعين ؛ في مصر ، وفي بغداد ، وفي مكة ، وفي يثرب ، فبرز ذلك من شاعريته ، وجعل هذه القصيدة للمدح خالصة ، ذكر فيها جهاد الكامل وصبره حتى ظفر بالنصر المبين ، وجاءت له ملوك الأرض خاضعين ، وهجر عن خواطره فحور هذا كله غير محالط شيئاً من ذلك يطلب رفقاً أو عطاء ، أو فخر بشمره على الشعراء . . . » قال :

بك اهتز عطف الدين في حُللِ النصرِ	وردت على أعقابها ملة الكُفْرِ
فقد أصبحت - والحمد لله - نعمة	تقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقلُّ بها بذلُ النفوس بشاره	ويصغرُ فيها كلُّ شيءٍ من النذر
ألا فليقل ما شاء من هو قائلُ	ودونك هذا موضعُ النظمِ والنثر
وجدتُ مَحَلًّا للمقالة قابلاً	فما لك إن قصرت في ذاك من عذر
لك الله من مولى إذا جاد أو سطا	فناهيك من عُرفٍ ، وناهيك من نُكرٍ
تعيُسُ به الأيامُ في حُللِ الصبا	وترفُل منه في مطارفه الخضرِ
أياديه بيضُ في الورى موسوية	ولكنها نسعى على قدم الخضرِ
ومن أجله أضحى المقطمُ شامخاً	ينافس حتى طور سيناء في القدرِ
تدين له الأملاكُ بالكرو والرضا	وتخدمه الأفلاكُ في النهي والأمرِ
فياملكاً سامى الملائك رفعة	عن الملا الأعلى له أطيب الذكرِ
ليهنك ما أعطاك ربك ، إنها	مواقفُ هن الغرُ في موقفِ الحشرِ

وما فرحت مصرُ بهذا الفتحِ وحدها
 فلو لم يقيم بالله حقَّ جهاده
 وأقسم لولا همةٌ كامليَّةٌ
 فمن مبلغِ هذا الهتاءِ بمكة
 فقل لرسولِ الله : إن سميَّه
 هو الكاملُ المولى الذى إن ذكرته
 به ارتجعتُ دمياطُ قهراً من العدا
 وردَّ على المحرابِ منها صَلَاتَه
 وأقسمُ إن ذاقَتْ بنو الأصفرِ الكرى
 عجيبُ لبحرِ جاء فيه سفينُهم
 ألا إنها من فعلةٍ لكبيرةٍ
 ثلاثة أعوام أقيمت وأشهرها
 صبرت إلى أن أنزلَ الله نصره
 وليلة غزوٍ للعدو كأنها
 فيا ليلةٌ قد شرفَ الله قدرها
 سددت سبيلَ البر والبحرِ منهم
 أساطيلُ ليست فى أساطيرِ من مضى
 وجيش كمثل الليلِ هولا وهيبةً
 وكل جوادٍ لم يكن قطُّ مثله
 وباتت جنودُ الله فوق ضوامر

لقد فرحت بغدادُ أكثرَ من مصرِ
 لما سلمت دارُ السلامِ من الدهرِ
 لخافت رجالُ بالمقامِ وبالحجرِ
 ويشربُ يُنهيهِ إلى صاحبِ القبرِ
 حمى بيضةَ الإسلامِ من نوبِ الدهرِ
 فيا طرب الدنيا ! يا فرحَ الدهرِ
 وطهرها بالسيفِ والبلَّةِ الطُّهرِ
 وكم باتت مُشتاقاً إلى الشفعِ والوترِ
 فلا حلَّمت إلا بأعلامه الصُفرِ
 ألسنا نراه عندنا ملك الغمرِ ؟
 سيطلبُ منها عفوَ حلحك واليسرِ
 تجاهدُ فيهم لا بزيدي ولا عمرو
 لذلك قد أحمدت عاقبةَ الصبرِ
 بكثرةٍ من أرديته ليلةَ النحرِ
 ولا غرو إن سميَّتها ليلةَ القدرِ
 بسابحةٍ دُهمٍ ، وسابحةٍ غرٍّ
 بكلِّ غرابٍ راح أفتك من صقرِ
 وإن زانه ما فيه من أنجمٍ زُهرِ
 لآلِ زهيرٍ لا ، ولا لبني بدرِ
 بأوضاعها تُغنى السراة عن الفجرِ^(١)

فلا زلتَ حتى أبداً اللهُ حزبه
 فرويتَ منهم ظاهيُ البيضِ والقنا
 وجاءت ملوكُ الأرضِ نحوكَ خضعاً
 أتوا ملكاً فوقَ السَّماكِ محلّه
 فمنَ عليهم بالأمانِ تَكْرُماً
 كفى اللهُ دِمياطَ المكارَةِ ؛ إنَّها
 وما طابَ ماءُ النيلِ إلا لأنَّه
 قلَّه يومُ الفتحِ يومَ دخولِها
 لقد فاقَ أيامَ الزمانِ بأسْرِها
 وبامعدِّ قومٍ أدركوا فيه حظُّهم
 وإني لمناحٍ إلى كلِّ قادمٍ
 فيطربُني ذاكَ الحديثُ وطيبُه
 وأصغى إليه مستعيداً حديثَه
 يقومُ مقامَ الباردِ العذبِ في الظَّما
 فكم مرَّ لي يومٌ إذا ما سمعتهُ
 وها أنا ذا حتى إلى اليومِ ربَّما
 لك اللهُ من أثنى عليك ، فإنَّما
 يقصِّرُ عنكَ المدحُ من كلِّ مادحٍ

وأشرقَ وجهُ الأرضِ جلالاً بالنصرِ
 وأشبعَتَ منهم طاويُ الذئبِ والنَّسرِ^(١)
 تَجرجرُ أذيالَ المهانةِ والصُّغْرِ
 فمن جوده ذاكَ السحابُ الذي يسرى
 على الرِّغمِ من بيضِ الصَّوارمِ والسُّمْرِ^(٢)
 لن قِبلةُ الإسلامِ في موضعِ النحرِ
 يحلُّ محلُّ الرِّيقِ من ذلكَ الثَّغْرِ
 وقد طارت الأعلامُ منها على وَكْرِ
 وأنسى حديثاً عن حُنينٍ وعن بَدْرِ
 لقد جمعوا بين الغنيمةِ والأجرِ
 إذا كان من ذاكَ الفتوحِ على ذِكْرِ
 ويفعلُ بي ما ليس في قدرةِ الخمرِ
 كأنِّي ذو وقْرٍ ، ولستُ بذِي وقْرٍ^(٣)
 ويغني عن الأزوادِ في البَلَدِ القَفْرِ
 أَقِرُّ به سمي ، وأذكُرُه فكري
 أكذبُ منه بالصَّحيحِ من الأمرِ
 من القتلِ قد أنجيتَه ، أو من الأسْرِ
 ولو جاء بالشَّمسِ المنيرةِ والبدرِ

(١) البيض : السيوف . والقنا : الرماح : والطاوي : الجائع .

(٢) الصوارم : السيوف . والسمر : الرماح .

(٣) ذو وقْر : به صمم .

يروى القنا بدم الأعادى

قال لبيد يملح السلطان الصالح نجم الدين أيوب أخا الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ ويصف شجاعته وتغلبه بالأعداء، وتشير هذه القصيدة إلى أن الصالح نجم الدين أيوب دعا لبيد إلى خدمته فسمى إليه مديراً ، راجياً أن تتحقق آماله ، وأرقب لبيد الصالح بالصلح لا يفارقه في ظعن أو إقامة ، وأغلق عليه السلطان من البر والعطاء ما جعله في غنى عن غيره من الناس .

وَدَلَّافٍ قَلْبِي مِنْ جَفَوْنٍ تَنْطِقُ	وَعَدَ الزَّيَارَةَ طَرَفُهُ الْمُتَمَلِّقُ
وَأَهْمُ بِالْقَدْرِ الرَّشِيقِ وَأَعَشَقُ	لِئَنِّي لِأَهْوَى الْحَسَنِ حَيْثُ وَجَدْتُهُ
مِثْلُ الْكَثِيبِ عَلَيْهِ صِلُ مُطَرِّقُ (١)	وَبِلَيْتِي كَفَلُ عَلَيْهِ ذُوَابَةُ
فَعَسَاكَ تَحْنُو ، أَوْ لَعَلَّكَ تَرْفُقُ	يَا حَاذِلِي ، أَنَا مَنْ سَمِعْتَ حَدِيثَهُ
لَرَأَيْتُ ثَوْبَ الصَّبْرِ كَيْفَ يُعْزَقُ	لَوْ كُنْتَ مِنَّا حَيْثُ تَسْمَعُ أَوْ تَرَى
وَعَجِبْتَ مِمَّنْ لَا يُحِبُّ وَيَعْشَقُ	وَرَأَيْتُ أَلْطَفَ عَاشِقَيْنِ تَشَاكِيَا
وَحَيَاتِهِ قَلْبِي أَرْقُ وَأَشْفَقُ ؟	أَيْسُوْنِي الْعُدَّالُ عَنْهُ تَصْبِرَا
لَا أَنْشِي ، لَا أَنْتَهِي ، لَا أَفْرُقُ	إِنْ عَنُقُوا ، أَوْ خَوْفُوا ، أَوْ سَوْفُوا
كَالْعَقْدِ فِي جِدِّ الْمَلِيحَةِ يَقْلُقُ	أَبَدًا أَزِيدُ مَعَ الْوِصَالِ تَلَهُّفًا
كَالْمَسْكِ تَسْحَقُهُ الْأَكْفُ فَيَعْبَقُ	وَيَزِيدُنِي تَلَفًا فَأَشْكُرُ فَضْلَهُ
يَا هَاجِرِي ، إِنِّي إِلَيْكَ لَشَيْقُ (٢)	يَا قَاتِلِي ، إِنِّي عَلَيْكَ لِمُشْفِقُ
يَا رَبُّ ، لَا عَاشُوا لَذَاكَ وَلَا يَبْقُوا	وَأَذَاخَ أَنِي قَدْ سَلَوْتُكَ مَعْشَرُ
خَوْفًا عَلَيْكَ إِلَيْهِمْ أَتَمَلِّقُ	مَا أَطْمَعُ الْعُدَّالَ إِلَّا أَنْنِي
فَاشْهَدْ عَلَيَّ بِأَنِّي لَا أَصْدُقُ	وَإِذَا وَعَدْتُ الطَّرْفَ فَيَكُ بِهِجَعُ

(١) الكتيب : اتحل من الرمل . والصل : الأضي .

(٢) الشيق : المشتاق .

قد كَانَ لِي مِنْهُ الْمَحَبُّ الْمُشْفِقُ
 فَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مَخْلُقُ
 تَقْضَى بِسَعْيٍ أَنَّهُ لَا يُخْفِقُ
 مِنْ فِرْطِ غَيْرَتِهَا إِلَى تَحْدُوقِ
 تَقِفُ الْمُلُوكُ بِبَابِهِ تَسْتَرْزِقُ
 أَلْفَيْتُ قَلْبَ الدَّهْرِ فِيهِ يَخْفِقُ
 قَدْ لَاحَ نَجْمُ الدِّينِ لِي يَنَالِقُ
 حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوْنِقُ
 سَنَدُ لَعْمَرُكَ فِي الْعُلَى لَا يُلْحِقُ
 أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يَقْبَلُ تُطْرِقُ
 فَلَكُمْ سَدِيرٌ عِنْدَهَا وَخَوْرَنَقُ^(١)
 وَالرِّزْقُ إِلَّا مِنْ نَدَاهُ مُضَيِّقُ
 وَعَلَوْ مِنْ أَمْسَى بِهِ يَتَعَلَّقُ
 فِيهِ ، وَلَا الْخَلْقُ الْكَرِيمُ تَخْلُقُ
 يَدْعُو عَلَيْهِ فِشْمَلُهُ يَتَفَرَّقُ
 فَلَهَا إِلَيْهِ تَشَوُّفٌ وَتَشَوُّقُ
 فَالْسَّمَرُ تَرْقُصُ ، وَالسَّيْفُ تُصَفِّقُ
 تَحْتَ الْعَرِيكَ ، وَهُوَ بِدُرٍّ مُشْرِقُ^(٢)
 فَلَذَاكَ يُشْمِرُ بِالرَّغْوَسِ وَيُورِقُ

فَعَلَامَ قَلْبِكَ لَيْسَ بِالْقَلْبِ الَّذِي
 وَأَظُنَّ نَحْدَكَ شَامِتًا بِفِرَاقِنَا
 وَلَقَدْ سَعَيْتُ إِلَى الْعِلَاءِ بِهَمَةٍ
 وَسَرَيْتُ فِي لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَاهُ
 حَتَّى وَصَلْتُ سَرَادِقَ الْمَلِكِ الَّذِي
 وَوَقَفْتُ مِنْ مَلِكِ الزَّمَانِ بِمَوْقِفِ
 فَوَالِيكَ يَا نَجْمَ السَّمَاءِ ، فَإِنِّي
 الصَّالِحِ الْمَلِكِ الَّذِي لَزَمَانِهِ
 مَلِكٌ يَحْدُثُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدَهُ
 سَجَدَتْ لَهُ كُلُّ الْعَيُونِ مَهَابَةً
 رَحْبُ الْجَنَابِ حَصِييَةُ أَكْنَافِهِ
 فَالْعَيْشُ إِلَّا فِي ذِرَاهُ مُنْكَدٌ
 يَا عَزَّ مِنْ أَضْحَى إِلَيْهِ يَنْتَمِي
 أَقْسَمْتُ مَا الصَّنْعُ الْجَمِيلُ تَصْنَعُ
 يَدْعُو الْوُفُودَ لِمَالِهِ فَكَأَنَّمَا
 أَبَدًا تَحْنُ إِلَى الطَّرَادِ جِيَادُهُ
 يَبْدَى لِسَطْوَتِهِ الْخَمِيسُ تَطْرِبًا
 فِي طَيِّ لَأَمْنِهِ هَزَبَرٌ بِاسِلٌ
 يُرَوِّى الْقَنَا بَدَمِ الْأَعَادِي فِي الْوَعْيِ

(١) الْأَكْنَفُ : الْخَوَافِ .

(٢) اللَّامَةُ : السَّعَرُ .

يَحْضِي فَيَقْدُمُ جَيْشَهُ فِي هَيْبَةٍ
 مَلَأَ الْقُلُوبَ مَخَافَةً وَمَحَبَّةً
 سَتَجُوبُ آفَاقَ الْبِلَادِ جِيَادُهُ
 لِيَبْكَ يَا مَنْ لَا مَرْدٌ لِأَمْرِهِ
 لِيَبْكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ بِأَسْرِهِمْ
 لِيَبْكَ أَلْفًا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي
 فَعَدَلْتَ حَتَّى مَا بَيْنَهَا مَتَظَلِّمٌ
 أَنَا مِنْ دَعْوَتِكَ وَقَدْ أَجَابَكَ مَسْرِعًا
 أَلْفَيْتُ سَوْفًا لِلْمَكَارِمِ وَالْعُلَى
 يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ الْمُنَى قُضِيَ أَدَاهُ
 يَا مَنْ رَفَضْتُ النَّاسَ حِينَ لَقِيْتُهُ
 قِيَدْتُ فِي مَصْرِ إِلَيْكَ رَكَاشِي
 وَحَلَلْتُ عَنْدَكَ إِذْ حَلَلْتُ بِمَعْقِلِ
 وَتَيَقَّنَ الْأَقْوَامُ أَنِّي بَعْدَهَا
 فَرَزِقْتُ مَا لَمْ يُرْزَقُوا ، وَنَطَقْتُ مَا

جَيْشٌ يَخْصُ بِهِ الزَّمَانُ وَيُشْرِقُ (١)
 فَالْبَاسُ يُرْعِبُ ، وَالْمَكَارِمُ تُعْشَقُ
 وَيُرَى لَهُ فِي كُلِّ فَجٍّ فَيْلَقُ
 وَإِذَا دَعَا الْعَيُّوقَ لَا يَتَعَوَّقُ (٢)
 وَأَعَزُّ مَنْ تُحَدِّدُ إِلَيْهِ الْأَيْتَقُ
 جَمَعَ الْقُلُوبَ نَوَالَهُ الْمَتَفَرِّقُ
 وَأَنَلْتُ حَتَّى مَا بَيْنَهَا مُسْتَرْزِقُ
 هَذَا الثَّنَاءُ لَهُ ، وَهَذَا الْمُنْطِقُ
 فَعَلِمْتُ أَنَّ الْفَضْلَ فِيهِ يَنْفَقُ
 قَالَتْ مَوَاهِبُهُ يَقُولُ وَيَصْدُقُ
 حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا
 غَيْرِي يَغْرُبُ تَارَةً ، وَيُشْرِقُ
 يُلْفَى لَدَيْهِ مَارِدٌ وَالْأَبْلَقُ (٣)
 أَبَدًا إِلَى رُتَبِ الْعُلَا لَا أُسْبَقُ
 لَمْ يَشْطِقُوا ، وَلَحَقْتُ مَا لَمْ يَلْحَقُوا

(١) شرق بريقه : غصص .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

(٣) الأبلق : اسم حصن السمور ، وفيه يقول :

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من دامه ويطول

يا أسفى

وهذه قصيدة من حجازيات ألباء ، يحن فيها إلى عيشه الوارف في الحجاز ، ويأسى إذ شط به المزار ، ونأت به الديار ، وغاب عنه أحبائه ، وهو من أجل ذلك لا يبرح الحجاز عن خياله ، ولا يكاد ينفصل عن بابه ، ويلتمس من أصحابه أن يعرضوا بذكره عند من يرى لعل ذلك ينمونها إلى السؤال عن حاله :

أحنُّ إلى عهدِ المحصب من مِنى	وعيش به كانت ترفُّ ظلاله
ويا حبذا أمواه ونصبه	ويا حبذا حصاؤه ورماله
ويا أسفى ، إذ شط عنى مزاره	ويا حزنى ، إذ غاب عنى غزاله
وكم لي بين المروتين لبانة	وبدر تمام قد حوته حجالة
مقيم بقلبي - حيث كنت - حديثه	وبادٍ لعينى - حيث سرت - خياله
وأذكر أيام الحجاز ، وأنثنى	كأنى صريع يعثره خياله
ويا صاحبي بالخيف ، كن لي مُسعداً	إذا آن من بين الحجيج ارتحالُه
وخذ جانب الوادى كذا عن يمينه	بحيث القنا يهزُّ منه طوالُه
هناك ترى بيتاً لزينب مشرقاً	إذا جئت لا يخفى عليك جلالُه
فقل ناشداً بيتاً ومن ذاق مثله	لدى جيرة لم يدرك كيف احتيالُه
وكن هكدا حتى تصادف فرصة	تصيب بها ما دمته وتناله
فعرّض بذكرى حيث تسمع زينب	وقل ليس يخلو ساعة منك باله
عساها إذا ما مرّ ذكرى بسمها	تقول : فلان عندكم كيف حاله ؟

يا طول شوقي وحنيني !

يحن البهاء في هذه القصيدة إلى موطنه الأول بالحجاز ، حيث قضى صباه ، ويذكر عهوده الخوالي بين زمزم والمقام ، والمحصب وما دونه من الحجون ، وقد كان عيشه رغداً ، ووقته راسعاً . . .

سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها ويا طول شوقي نحوها وحنيني !
 بلاد إذا شارفت منها نجومها بدا النور في قلبي ، وفوق جبيني
 منازل كانت لي بهنّ منازل وكان الصبا إلني بها وقريبي
 تذكّرت عهداً بالمحصب من مني وما دونه من أبطح وحجون
 وأيامنا بين المقام وزمزم وإخواننا من ' واقدي وقطين
 ويا طيب نادني ذرى البيت بالضحى وظلّ يقوم العود فيه بحين
 وقد يكرث من نحو نعمان نسمة تحدّث عن أريك بها وغصون
 زمان عهدت الوقت لي فيه واسعاً كما شئت من جدّ به ومجون
 إذ العيش نضر فيه للعين منظر وإذا وجهه غصّ بغير غصون

(ب) الشاعر الاجتماعي :

مناقب شبي

قال يمدح علاء الدين ابن الأمير شجاع الدين جللك التتوي .

هذه القصيدة نموذج لما كان ينهجه البهاء في مدائحه ، فهو يقدّم بالنسب ، ويخلص منه في لطف وتوفيق إلى المديح ، ثم يفخر بشعره وأنت ترى أن الفرضين : الأول والأخير قد طغيا على المديح حتى لم يبق له من القصيدة التي حلّتها عشرون بيتاً إلا أربعة أبيات كما ترى :

أغصن النقا ، لولا القوام المهفّف لما كان يهواك المعنى المعفّف^(١)
 ويا ظيُّ ، لولا أن بفيلك محاسناً حكين الذي أهوى لما كنت توصف

(١) النقا : القطعة من الرمل المحدودة .

كَلِيفَتُ يَخْصِنُ ، وهو غصنٌ مُنْطَقٌ
ومما دهاني أنه من حياته
وذلك أيضاً مثل بستان خده
فيا ظبي ، هلاً كان فيك التفاته
ويا حرمَ الحسن الذي هو آمنٌ
عسى عطفة للوصل يا واو صدغ
أَحْبَابُنَا ، أمّا غرامي بعدكم
أطلتم عذابي في الهوى فشرققوا
ووالله ما فارقتم عن ملامه
ولكن دعاني للعلاء بن جلدك
إلى سيد أخلاقه وصفاته
أرق من الماء الزلال شائلاً
مناقب شتى لو تكون لحاجب
غدا من مداها حاتم وهو حاتم
أنتك القواني وهي تحسب روضة
ولو قصدت بالدم شائلك لاغتدى

وهمتُ بظبي وهو ظبي مشفقٌ
أقول : كليل طرفه وهو مرهفٌ
به الورد يُسمي مُضْعَفاً ، وهو مُضْعِفٌ
ويا غصن ، هلاً كان فيك تعطفُ
وَالْبَابُنَا من حوله تُتَخَطَّفُ
عني فيائي أَصْرُ الوَاو تعطفُ
فقد زاد عما تعرفون ، وأعرفُ
فبي كلف في حمله أنكافُ
وجهدي لكم أني أقول وأحلفُ
تشوق قلب قادني وتشوفُ
نؤدب من يثنى عليه يتطرفُ
وأصني من الخمر السلاف والطفُ
لا ذكرت يوماً له القوس خندف^(١)
وأصبح عنها أحف وهو أحف^(٢)
لا ضمنتَه وهو قول مزخرفُ
وحاشاك منه قلبه يتنطفُ

(١) حاجب : يريد به حاجب بن ذرارة بن علي الداري التيمي وهو من مادات العرب في الجاهلية رهن قومه عند كسرى على مالك عظيم روى به . خندف : هي ليلى بنت حلوان بن همران من قضاعة ، أم جاهلية ينسب إليها بطن من مضر من العذمانية .

(٢) حاتم الأول : هو حاتم الطائي المشهور بالكرم . وحاتم الأخرى : المنقطع . وأحف الأول : هو الأحنف بن قيس أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية التيمي الملقب بالأحنف سيد تميم وأحد أقطاب الدعوة الفصحاء الشجعان اللاتحين يضرب به المثل في الحلم . وأحنف الأخرى . من اهوجت رجله إلى داخل .

تَقَلَّدُ عَارَاً وَهِيَ دُرٌّ مَنْظُمٌ وَتَلْبِسُ حُزْنًا وَهِيَ بُرْدٌ مُقَوَّفٌ
وَتُصَلِّي جَحِيمًا وَهِيَ فِي الْحَسَنِ جَنَّةٌ وَتَسْتَقِي ذِهَاقًا وَهِيَ صَهْبَاءُ قَرَقَفٌ^(١)

يولي المنايا والمنى

قال يمدح الأمير النصير المظلي، ويهنته بالقُدوم :

ويعد البهاء زهير في هذه القصيدة إلى المدح من غير تقديم بالنسب ، وأنت ترى فيها شيوع المحسنات البديعية ، وذكره المديح بصفتها الشجاعة والكرم والجِد والشرف والحلم ، ثم الختم بذكر شعره فأغراً به ، والجديد في هذه القصيدة تعبيره عن خواطره في حالي غيبة الأمير المظلي وقُدومه ... والقصيدة - بعد ذلك - معرض لثقافة البهاء وتلقى ضوءاً على الحال الاجتماعية في عصره .

صفحاً لهذا الدهر عن هَفَوَاتِهِ إِذْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ حَسَنَاتِهِ
يَوْمٌ يَسْطُرُ فِي الْكِتَابِ مَكَانَهُ كَمَا كَانَ بِسْمِ اللَّهِ فِي خَتَمَاتِهِ
مَطَّلَ الزَّمَانُ بِهِ زَمَانًا آتِئًا أَنْفَتُ ، وَعَادَ لَهَا إِلَى عَادَاتِهِ
وَالْغَيْثُ لَا يَسْمُ الْبِلَادَ بِذَفْعِهِ إِلَّا إِذَا اشْتَاقْتَ لَوْسِمَاتِهِ^(٢)
يَا مُعْجَزَ الْأَيَّامِ قَرَعَ صِفَاتِهِ وَمَجْمَلُ الدُّنْيَا بِحَسَنِ صِفَاتِهِ
بَلْ أَحْنَفًا فِي حَلَمِهِ وَثَبَاتِهِ بَلْ حَارِثُ الْهَيْجَاءِ فِي وَثَبَاتِهِ
بَلْ كَعْبَةُ الْمَعْرُوفِ ، بَلْ كَعْبُ الْفُتَا وَالْمَاءُ يَقْسِمُ شَرْبَهُ بِحَصَاتِهِ
إِنْ كُنْتَ غَيْبَتَ عَنِ الْبِلَادِ فَلَمْ تَغِبْ مِنْ خَاطِرِي إِذْ كُنْتُ مِنْ خَطَرَاتِهِ
لَوْ كُنْتُ فَشَّشْتُ النَّسِيمَ وَجَدْتَهُ وَدَعَاؤُنَا يَا تُبَيْكُ فِي طَيَّاتِهِ
وَكُنِي أَهْتَامًا مِنْهُمَا بِكَ أَنْ غَدَا كُلُّ يُرِيدُكَ أَنْ تَكُونَ لِدَاتِهِ
وَالْجِدُّ إِنْ أَمْضَى عَزِيمَةً مَاجِدٍ رَاحَ السَّكُونُ يَنْدُوبٌ عَنْ حَرَكَاتِهِ

(١) اللهاق : الكأس المشللة . القرقف : الخمر .

(٢) وسم المطر الأرض : أصابها الوسم وهو أول مطر الربيع .

وأنى البشيرُ فلو يسوع لواحده
 فارباً بعزك لم تدع من منصب
 وتفرعت للمجد منك ثلاثة
 عن كل مهدي غدا في مهله
 أفضى إليه المشتري يسعوده
 شرفت بنصر في البرية معشر
 قوم هم في البيد خير مراتها
 شرف الزمان بكل ندب منهم
 أليف النداء ، ورأى وجوب صلته
 بولي المنايا والمني كالليث في
 ذى عزمة إن راح في سفرائه
 يا منسك المعروف ، أحرم منطقي
 هذا زهيرك لا زهير مزينة
 دعه وحوليته ، ثم استمع
 لو أنشدت في آل جفنة أعرضوا
 مناً لقامعه للبد حياته
 يفضي إلى رتب العلام تاته
 كدلالة الجوزاء في جنباته
 يسمو إلى أصلافة بسماته
 وأعاره بهرام من سطواته (١)
 هو فيهم كالسن فوق لثاته
 حسباً ، وهم في الدهر خير سراته (٢)
 متبفظ. وهب العلا غفواته
 كرمأ ، ولم يفرض وجوب صلته
 غاباته ، والغيث في غاياته
 سكبت شبا الهندي من سفرائه
 زمنأ ، وقد ليأك من ميثاقه
 وافاك لا هراماً على علاته (٣)
 لزهير عصرك بعض ليلياته
 عن ذكر حسان وعن جفنانه

جناب فيه للمجد مرتقى

قال يلمع اصحاب منى الدين أباعبد الله بن علي المعروف بابن شكر :

أخلفت عليه بالمحبة موثقاً وما زال قلبي من تمنيه مشفقاً

(١) المشتري : نجم من السيارات .

(٢) السراة بالضم : جمع سار وهو السائر ليلاً . والسراة بالفتح : جمع سري وهو الشريف .

(٣) زهير مزينة : يريد به زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي المشهور صاحب الخوايات .

وهرم : هو هرم بن سنان أحد أجواد العرب .

وقد كنت أرجو طيفه أن يُلِمَّ بي
ولي فيه قلبٌ بالغرامِ مقيّدٌ
كلّفتُ به أحوى الجفونِ مَهْفَهْفَأُ
ومن فرطِ وجدى فى لَمَاهِ وثغره
كذلك لولا بَارِقٌ من جبينه
ولي حاجةٌ من وصله غير أنها
خليلي كُفًّا عن ملامَةٍ مُغْرَمٍ
ولا تحسبنا قلبي كما قلتُما سَلا
فما ازداد ذاك القلبُ إلا تَمَادِيَا
إلى كم أرجى باخِلًا بِوِصَالِهِ
فحسبُ فَوَادِي لوعةٍ وصِيبَاةٍ
على أنها الأيامُ مهما تداولت
ولست نرى خِلًا من القدرِ سالماً
إذا نلتَ منه الودَّ كان تَكَلُّفًا
ومما دهاني حرفةٌ أدبيّةٌ
وإن شملتني نظرةٌ صاحبيّةٌ
وزيرٌ إذا ما شمتَ غرّةً وجهه
ذممتُ السحابَ الغرُّ يوم نَوَّالِه

فأشهرنى ؛ كئى لا يُلِمُّ وَيَطْرُقَا (١)
له خبرٌ يرويه دمعى مُطْلَقَا
من الظبي أحلى ، أو من الغصن أرشقا
أَعْلَلُ قلبي بالعذيبِ وبالذقا
لما شِئمتُ برقاً ، أو تذكرتُ أودقا
مرددةٌ بين الصبابةِ والتقى
تذكرُ أياماً مضت فتشوقنا
ولا تحسبنا دمعى كما قلتُما رَقَا (٢)
وما ازداد ذلك الدمعُ إلا تَدَفَّقَا
وحتى متى أخشى القلبي والتفرقا (٣) ؟
وحسبُ جفونى عِبرةً وقَارَقَا
سرورٌ تقضى ، أو جديدٌ تَمَزَّقَا
ولا تنتقى يوماً صديقاً فيصُدَّقَا
وإن نلتَ منه البشمرَ كان تَمَلُّقَا
عَدَّتْ دون إدراكِ الطالبِ خندَقَا
فلمستُ أرى يوماً من الدهر مُمْلِقَا
قدحٌ لِسِوَاكَ العارضِ المتأَلِّقَا
وحقّرَ عندي وبَلَّهَا التَدَفَّقَا

(١) الطيف : الخيال يلم فى المنام .

(٢) رقا : رقا أى تكفكف .

(٣) القلى : البغض .

وجدت جناباً فيه للمجد مرتقى
إذا قلتُ عبدُ الله ثم عنيته
يقبك من الأيام كلُّ مليمٍ
وكم لك فينا من كتابٍ مصنفٍ
عكفنا عليه ليجتنبى من فنونه
وكم شاعر وافي إليك بمحدثه
فإن حسنتَ لفظاً فمن روضك اجتنى
فلا زلتَ ممدوحاً بكلِّ مقالة
وما حسنتَ عندي وحققك إذ غدت
ولا إن جرت مجرى النسيم لطافةً
ولكنها حازت من اسحك أحرفاً

وفيه لذي الحاجات والنجح ملتقى
جمعتُ به كلَّ التعاويذ والرقي
ويكفبك من أحداثها ما تطرقا
تركت به وجه الشريعة مشرقا
فعلّمنا هذا الكلام الموثقا
فخرقوها مما أفدت ونمقا
وإن عذبت شرباً فمن بحرك استقى
تربك جريراً عبداً، والفرزدقا
هي الثبر مسبوكة، أو الدر منتقى
ولا إن حكمت زهر الرياض المعبقا
كسنتها جمالاً في النفوس ورونقا

بعض هباته المفاخر والمآثر والاعلا

قال يملح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة ٦٤٦ :

عرفت الحبيب مكانه فتدللاً
وأتى الرسوم ، ولم أجد في وجهه
فقطعت يومى كله متفكراً
وأخذت أحسب كل شئ لم يكن
فلعل طيفاً زار منه فردة
وعسى نسيم بت أسكن سرنا

وقنعت منه بموعِد فتعللاً
بشراً كما قد كنت أعهد أولاً
وسهرت ليل كله متملحلاً
متحركاً في فكري متخيلاً
سهرى فعاد بغيظه فتقولاً
عنه فراح يقول عني : قد سلا

ولقد خَشِيتُ بَأْنَ يَكُونُ أَمَالُهُ
وَأَظَنَّهُ طَلَبَ الْجَدِيدِ ، وَطَالَمَا
أَبْدَأُ بِرَى بُعْدِي ، وَأَطْلُبُ قُرْبَهُ
وَعَلِيقَتُهُ كَالْغُصْنِ أَسْمَرَ أَهْبَافاً
فَضَحَ الْغَزَالَةُ وَالْغَزَالُ : فَتِلْكَ فِي
عَجَباً لِقَلْبٍ مَا خَلَا مِنْ لَوْعَةٍ
وَرِسْمٍ حَسَمَ كَادَ يَحْرِقُهُ الْجَوَى
وَهُوَى حَفِظْتُ حَدِيثَهُ وَكَتَمْتُهُ
أَهْوَى التَّدَلُّلِ فِي الْغَرَامِ ، وَإِنَّمَا
مَهَّدْتُ بِالْغَزْلِ الرَّقِيقِ لِمَدْحِهِ
مَلِكٍ شَمَخْتُ عَلَى الْمُلُوكِ بِقُرْبِهِ
وَرَفَعْتُ صَوْتِي قَائِلاً يَا يَوْسُفُ
ثُمَّ التَفْتُ وَجَدْتُ حَوْلِي أَنْعَمَاءُ
وَمَصَّرْتُ أَغْصَانِ الْمَطَالِبِ مِيسَاءُ
قَهَرَ الزَّمَانَ وَقَدْ عَرَانِي صَرْفُهُ
وَإِذَا نَظَرْتُ وَجَدْتُ بَعْضَ هِيبَاتِهِ
يُرَوِّى حَدِيثَ الْجُودِ عَنْهُ مُسْنَدًا
مِنْ مَعْشَرٍ فَاقُوا الْمُلُوكَ بِسِيَادَةِ
وَكَأَنَّ مَتْنَ الْأَرْضِ يَوْمَ رُكُوبِهِمْ
مِنْ كُلِّ أَغْلَبَ فِي الْهِيَاجِ كَأَنَّمَا

غَيْرِي ، وَطَبَعَ الْقُصْنِ أَنَّ يَتَمَيَّلَا
عَنْقَ الْقَمِيصِ عَلَى أَمْرٍ فَتَبَدَّلَا
وَلَوْ أَنَّنِي جَارٌ لَهُ لَتَحَوَّلَا
وَعَشِيقَتُهُ كَالظُّبَى أَحْوَرَ أَكْحَلَا
وَسَطَ السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ فِي وَسَطِ الْقَلَا
أَبْدَأُ يَحْنُ إِلَى زَمَانٍ قَدْ خَلَا
لَوْ لَمْ تَذَارِكْهُ الدَّمُوعُ لِأَشْعَلَا
فَوَجَدْتُ دَمْعِي قَدْ رَوَاهُ مُسْلَسَلَا
يَأْنِي صِلَاحَ الدِّينِ أَنَّ أَنْدَلَا
وَأَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرَضِ أَنْ أَتَنَفَّلَا (١)
وَلَيْسَتْ ثَوْبَ الْعِزِّ مِنْهُ مُسَبَّلَا
فَأَجَابَنِي مَلِكٌ أَطَالَ وَأَجَزَلَا
مَا كَانَ أَسْرَعَهَا إِلَيَّ وَأَعْجَلَا
وَمَرِيتُ أَخْلَافَ الْمَوَاهِبِ حُفْلَا
حَتَّى مَشَى فِي خِدْمَتِي مُتَرْجَلَا
فِيهَا الْمَفَاخِرُ وَالْمَائِرُ وَالْعُلَى
فَعَلَامَ تَرْوِيهِ السَّحَابُ مَرْسَلَا
وَسَعَادَةَ وَتَطْوُلَا وَتَفْضُلَا
يَكْسُونُهُ بُرْدًا عَلَيْهِ مُهْلَهَلَا
لَيْسَ الْغَدِيرَ ، وَهَزَّ مِنْهُ جَدُولَا

(١) اتنفل : أقوم بالنفل وهو فوق الفرض .

وإذا سألتَ سألتَ غيثاً مُسْبِلاً
 عذراء تبدو عذرةً وتنفصلاً
 فاعذر بطيئاً قد أتى لك مُثْقَلاً
 فأنت تُريك تَذُلّاً وتَعْلَلاً
 جمع الخزامى نشرها والمنذلاً (١)
 منعت زياداً أن يقول وجرولاً (٢)
 كالخمر مازجت الزلال السلسلاً
 والعقد أحسن ما يكون مفصلاً
 كلُّ الملوك تودداً وتوسلاً
 متفصلاً ، وأتاهم مُثَمِّلاً
 فكأنما أتلو كتاباً مُنَزَلاً
 والنص عند القوم لن يُثَاوَلَ
 عيشاً سواه ، وإن أردتُ فلا حَلَا
 أن لا أقوم ببعض ذلك ولا ، ولا

وإذا سألتَ سألتَ غيثاً مُسْبِلاً
 مولاي ، قد أهديتها لك كاعباً
 حملت ثناء كالهضاب فابطأت
 عرفتُ محبتها لديك وحسنها
 بدوية إن شئت ، أو حضرية
 لو أنها ممن تقدم عصره
 غزل ومدح بت أغرق فيهما
 فتألفت عقداً يروق نظامه
 يا أيها الملك الذي دأبت له
 فعلاهم متطولاً ، وحباهم
 يا من مديحي فيه صدق كله
 يا من ولاتي فيه نص بين
 ولقد خلا عيشي لديك ولم أريد
 وشكرتُ جودك كلُّ شكر عالماً

(١) المنذك : العود للطبيب الرائحة .

(٢) زياد : يريد به زياد ابن أبيه أحد شيوخه للسرِب المشهورين . ويهرك : هو الخطبة

ووالله ما زالت دمشق مليحة

قال يمنح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك المزور محمد بن الملك الظاهر غازي بن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق سنة ٦٤٨ وكان متغير المزاج ثم هوى :

لکم منی الوُدّ الذی لیس یبرحُ
وکم لی من کتّبِ ورُسلِ إلیکمُ
وفی النفس ما لا أستطیعُ أبثّه
زعمتم بآئی قد نقضتُ عهدکم
ولأفما أدری عسی کنتُ ناسیاً
خلقتُ وفیاً لا أری الغدر فی الهوی
سلوا الناسَ غیری عن وفائی بعهدکم
أأحبّابنا ، حتی منی ؟ ولإلی منی
حیاتی وصبری مد هجرتهم کلاهما
رعى الله طیفاً منکم بات مؤنّی
ولکن آتی لیلاً ، وعاد بسُخرةٍ
ولی رشاً ما فیهِ قَدْحُ لقادحٍ
فتنتُ به حُلّواً ملیحاً وإنه
تبراً من قتلی وعینی ثری دمی
وحسبی ذاک الخدّ لی منه شاهدٌ
ویبسمُ عن ثغرٍ یقولون إنه

ولی فیکمُ الشّوقُ الشّدیدُ المبرحُ
ولکنها عن لوعی لیس تُفصحُ
ولستُ به المکتبُ والرّسلُ أسمعُ
لقد کذب الواشی الذی لیس ینصحُ
عسی کنت سکراناً ، عسی کنت أمرح
وذلك خلّقُ عنه لا أنزحُ
فإنی أری شکری لنفسی یقبّحُ
أعرّض بالشکوی لکم وأصرّحُ ؟
غریبٌ ، ودعی للغریبین یشرحُ
وما ضرّه إذ بات لو کان یُصبحُ
دری أن ضوء الصبح إن لاح یفصحُ
سوی أنه من خده النارُ تُقدحُ
لأعجبُ شیءٌ کیفَ یحلّو ویلجُ
علی خده من سیفِ جَفْنیه یسفحُ^(١)
ولکن أراه باللوّاحظ یجرّحُ
حبابٌ علی صهباء بالمسک تنفّحُ

ولم أرَ عدلاً وهو سُكرانٌ يطفحُ^(١)
 ولكن سُكوتي عن جوابك أَصْلَحُ
 فإنَّ بقائي ساكناً لي أَرْوَحُ
 رَشِيقُ ، وأما وجهه فهو أَصْبَحُ
 تداخله زهو به فهو يَمْرَحُ
 لِيَمْخُجَلَ غصنُ البانَةِ المَطْوَحُ
 كما مال في الأرجوحة المُرْجَحُ
 فإطربه ، ^{١١} حتى انشَى يَتَرَنِّحُ
 ليصبُو إليه كلُّ قلبٍ وَيَجْنَحُ
 ومدحاً بمدح ، ثم يربو ويمتَحُ
 مكارمه تُثْنِي عليه ، وتُمدَحُ
 لأنَّ لسانَ الجودِ بالمدح أَفْصَحُ
 وقد غلطوا؛ بمناء أسخى وأسمَحُ^(٢)
 فأين يُرى غيلانٌ منه وصيْدَحُ؟
 فإنَّ رِبالاً نعتُه يَتَرَشَّحُ
 فليس يُعَدُّ اليومَ ذاك التسمَحُ
 تعالوا بنا للحقِّ والحقُّ أَوْضَحُ
 ولا العِرْقُ مَفْصُودٌ ، ولا الشاةُ تَذْبَحُ
 يثيه على كِسْرَى الملوِكِ ويرجعُ

وقد شهد المسْأَلَةُ عندي بطيبه
 وبأعاذي فيه جوابك حاضرُ
 إذا كنتُ ما لي في كلامك راحةُ
 وأسمرُ : أما قلده فهو أَهْيَفُ
 كأنَّ الذي فيه من الحسنِ والصبَا
 كأنَّ نسيمَ الروضِ هزَّ قَوَامَهُ
 كأنَّ المُدَامَ الصُّرْفَ مالت بِعِطْفِهِ
 كأنِّي قد أنشدته مدحَ يوصفِ
 وإنَّ مديحَ الناصرِ بنِ محمدٍ
 مديحُ يَنْبِلُ المادحين جلاله
 وليس بِمحتاجٍ إلى مدحِ مادحٍ
 وكلُّ فصيحٍ أَلْكَنُ في مديحه
 وقد قاسَ قومُ جودٍ بمناء بالحبا
 وغيثُ سمعتُ الناسَ ينتجِثونه
 لئن كان يختارُ انتجاعَ رِبالِهِ
 دعوا ذِكْرَ كعبٍ في السَّماحِ ، وحائِمِ
 وليس صعاليك العريبِ كيوسفِ
 فما يوسفُ يَقْرِي بنابٍ مُسِنَّةٍ
 ولكن سلطاني أَقْلُ عبيده

(١) المسوأك : العود الذي يُمَخِّفُ به الأسنان . والبيت مستند من قول بشار :

يا أطيِّب الناس ريقاً غير مختبر

إلا فمادة أطراف المسوأك

(٢) الحيا : المطر .

وبعض عطاياه المدائن والقُرى
فلو سُئِلَ الدنيا رآها حقيرة
وإن خليجاً من أياديه للورى
فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْأَرْضِ مَا تَلَحُّقُونَهُ
كثيرُ حياءِ الوجه يقطرُ ماؤه
كذا الليثُ قد قالوا حبيبي وإنه
مناقبٌ قد أضحى بها الدهرُ حالياً
من النضرِ الغر الذين وجوههم
بها ليلٌ ، أملاكٌ كأنَّ أكفهم
فكم أشرقت منهم شمس طوالح
كذاك بنو أيوبَ ما زالَ منهم
أناسٌ هم سبوا الطريقَ إلى العلا
ولم يتبعوا في الناس من جاء بعدهم
ليهنَ دمشقَ اليومَ صحتك التي
فلا زهرٌ إلا ضاحكٌ مُتعطفٌ
ولا غصنٌ إلا وهو نشوان راقص
وقد أشرقت أقطارُها فاغتندى لها
وشرفت مغناها فلو أمكن الورى
ووالله ما زالت دمشق مليحة
عرضت على خير الملوك بضاعتي

فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبحُ
وجادٌ بها سراً ولا يتنجحُ
يرى كل بحرٍ عنده يتضحضحُ
لقد أتعب الغادى الذى يتروحُ
على أنه من بابه النارُ تَلْقَحُ
لأجراً من يلقى جنائاً وأوقحُ
فها عطفه منها موشى موشحُ
مصايحُ فى الظلماء بل هى أصبحُ
بحار بها الأرزاق للناس تسبحُ
وكم فطمت منهم سحائب دُلحُ (١)
عظيم مرجى ، أو كريم مُمدحُ
وهم أعربوا عنها ، وقالوا فأفصحوا
لقد بينوا للساكنين وأوضحوا
بها فرحت ، والمدنُ كالناس تفرحُ
ولا دوحٌ إلا مائس مُترشحُ
ولا طيرٌ إلا وهو فرحانٌ يصدحُ
شعاع له فوق المجرى مطرحُ
لطاؤوا بأركانٍ لها وتمسحوا
ولكنها عندى بك اليومَ أملحُ
فألفيت سوقاً صفقتى فيه ترَبَحُ

(١) دلح : جمع دالح وهى السحابة الكبيرة الماء .

سَأَزْدَادُ عَزًّا مَا بَقِيَتْ وَأُفْلِحُ
وَأَنْ أُمُورًا أَبْتَغِيهَا سَتَنْجَحُ
لِمَا أَفْسَدَتْ مِنِّي الْحَوَادِثُ يُصْلِحُ
لَدَى يَوْسُفَ فِي أَنْعَمَ لَسْتُ أَبْرَحُ
تَسَامِحُ بِاللَّدْنِ الْعَظِيمِ وَتَسْمَحُ
مَقَامُكَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِي وَأَرْجَحُ
وَمَا كَلَّ مَعْنَى فِي مَدِيحِكَ يَصْلِحُ
فَإِنَّكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَضْفَحُ
وَيَبْسُطُ قَلْبًا ذَا انْقِبَاضٍ وَيُشْرَحُ
وَأَرْضِي بِبَعْضٍ مِنْهُ إِنْ كُنْتَ أَصْلِحُ

وَقَدْ وَثِقَتْ نَفْسِي بِأَنْ عِنْدَهُ
وَأَنْ خُطُوبِيًّا أَشْنَكِيهَا سَتَنْجَلِي
وَأَنْ صِلَاحَ الدِّينِ ذَا الْمَجْدِ وَالْعِلَا
بِشَرْقٍ غَيْرِي ، أَوْ يُغْرِبُ إِنِّي
أُمُولَايَ ، سَامِحْنِي فَإِنَّكَ لَمْ تَزَلْ
لَكَ الْعَذْرُ مَا لِلْقَوْلِ نَحْوَكَ مُرْتَقَى
فَمَا كَلَّ لَفْظًا فِي خَطَابِكَ يُرْنَضِي
أَنْتَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرًا تَأْخُرَتْ
وَهَبْ لِي أَنْسَا مِنْكَ يَذْهَبُ وَحَشْتِي
وَجُدْ لِي بِالْقُرْبِ الَّذِي قَدْ عَهْدْتَهُ

حـ - الشاعر الهجاء :

أَقْبَحُ مِنْ وَعْدٍ بِلَا وَفَاءٍ

وَجَاهِلٌ طَالَ بِهِ عَنَائِي	لَا زَمَنِي وَذَاكَ مِنْ شِقَائِي
كَأَنَّهُ الْأَشْهُرُ فِي أَسْمَائِي	أَخْرَقُ ذُو بَصِيرَةٍ عَمِيَاءِ
لَا يَعْرِفُ الْمَدْحَ مِنَ الْهَجَاءِ	أَفْعَالُهُ الْكُلُّ عَلَى اسْتِوَاءِ
أَقْبَحُ مِنْ وَعْدٍ بِلَا وَفَاءِ	وَمِنْ زَوَالِ النِّعْمَةِ الْحَسَنَاءِ
أَبْغَضُ لِلْعَيْنِ مِنَ الْأَقْدَاءِ	أَثْقَلُ مِنْ شِمَاتِ الْأَعْدَاءِ
فَهُوَ إِذْ رَأَاهُ عَيْنُ الرَّائِي	أَبُو مَعَاذٍ ، أَوْ أَخُو الْخَنَسَاءِ

ثَقِيلٌ . . .

وِثْقِيلٌ	كَأَنَّمَا	مَلَكُ	الْمَوْتِ	قُرْبُهُ
لَيْسَ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ	مِنْ	تَرَاهُ	يُحِبُّهُ	
لَوْ ذَكَرْتَ أَمْرَهُ عَلَى أَلِّ	مَاءٍ	مَا سَاغَ	شُرْبُهُ	

حمقى ، منافقون ، ذوو عجب

أرى قوماً بُليت بهم	نصيبي منهم نصبي
فمنهم من ينافق لي	فيحلف لي ، ويكذب لي
ويُلزمني بتصديق الـ	لمنى قد قال من كذب
وذو عجب إذا حلّد	ت عنه جئت بالعجب
وما يذرى بحمد الـ	ه ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحقّ منـ	ه في عجم ولا عرب
وأحقّ قد شقيت به	بلا عقل ، ولا أدب
فلا ينفك يتبعني	وإن أمنت في الهرب
كأنى قد قتلت له	قتيلاً فهو في طلبي
لأمر ما صحبتهم	فلا نسأل عن السبب
يحسن عقلنا أنا	نصيد الباز بالحرب
وكنا قد ظننا الصّفـ	ر عند النقد كالذهب ^(١)
فلم نظفر بحاجتنا	وأشفينا على العطب

(١) الصفر : يقصد به النحاس .

كلامك والدولاب والطبل والرحى . . .

تكلُّمُنِي بِالْأَرْمَنِيسَةِ جَارِي	أَبَا جَارِي ، مَا الْأَرْمَنِيسَةُ مِنْ طَبْعِي
وَيَا جَارِي ، لَمْ آتِ بِبَيْتِكَ رَغْبَةً	وَلَا أَنْتِ مِنْ يُرْجَى لِضُرٍّ وَلَا نَفْعٍ
دَعَانِي إِلَيْكَ اللَّيْلُ وَالْأَيُّنُ وَالسُّرَى	فَمَا دَفَعْتَ أَمْرًا ضَاقَ مِنْ حَمَلِهِ وَسَمَى ^(١)
كَلَامُكَ وَالْدَوْلَابُ وَالطَّبْلُ وَالرَّحَى	فَلَمْ أَدْرِ مَا أَشْكُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْعِ
كَلَامُكَ فِيهِ وَحْدَهُ لِي كَفَايَةٌ	كَأَنَّ صَخُورًا مِنْهُ تُقَذَّفُ فِي سَمْعِي
لَكَ اللَّهُ مَا لَا قِبَتَ يَا عَرَبِيَّتِي	وَمَا ذَا الَّذِي عَوَّضْتُ بِالْبَانِ وَالْجَزْعِ ^(٢)
سَأَدْعُو عَلَى الْجُرْدِ الْجَبَادِ ، لِأَنَّهَا	سَرَتْ فَأَتَتْ بِي وَادِيًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ

كيف لي منك خلاص . . .

يَا ثَقِيلًا لِي مِنْ رَوْ	يَتَسَّهَهُمْ طَوِيلُ
وَبِغِيضًا هُوَ فِي الْحَدِّ	قِنْ شَجِي لَيْسَ يَزُولُ
كُلُّ فَضْلٍ فِي الْوَرَى أَضْ	عَاقَهُ فَيْكَ فَضُولُ
كَيْفَ لِي مِنْكَ خَلَاصُ	أَبْنَ لِي مِنْكَ سَبِيلُ ؟
حَارَ أَمْرِي فَيْكَ حَتَّى	لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ
أَنْتِ وَاللَّهِ ثَقِيلُ	أَنْتِ وَاللَّهِ ثَقِيلُ

(١) الأين : التنب والمشفة . السرى : السير ليلا .

(٢) الجزع : من الوادي حيث تقطعه .

هو في المجلس قدم : ..

كلّما قلتُ استرحنا جاعنا الشيخ الإمام
فأعترانا كلنا من انقباض واحتشام
فهو في المجلس قدّم ولنا منه قدام^(١)
وعلى الجملة فالش يخ ثقيل والسلام

غاب عنا ففرحنا . . .

وثقيل ما برحنا نتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا جاعنا أثقل منه

لا حسن ولا حسنى . . .

وذى حسنة وافيته عند حاجة سمعت به لفظاً ، ولم أره معنى
فوجه ولا يشر ، ومال ولا ندى لقد خاب لا حسن حواه ، ولا حسنى

خال من العقل . . .

ما العقل إلا زينة سبحان من أخلاك منه
فُسِمَت على الناس العقو لُ وكان قسماً غبت عنه

(١) القدم : الأسبق . القدام : الكرامة .

تَبَّأَ لَهَا مِنْ لَحْيَةٍ . . .

وَأَحْمَقُ	ذِي	لَحْيَةٍ	كَبِيرَةٍ	مُنْتَشِرَةٍ
طَلَبْتُ	فِيهَا	وَجْهَهُ	بَشْدَةً	فَلَمْ أَرَهُ
مَعْرِفَةً	لَكِنَّهُ		أَصْبَحَ	فِيهَا نَكْرَهُ
ثَوْرٌ	غَدَا	أَعْجُوبَةً	بِلَحْيَةٍ	مَدُورَةٍ
لَوْ كَانَ	ذَلِكَ	الثَّوْرُ	عَجْزًا	السُّمَرُ
تَبَّأَ	لَهَا	مِنْ	لَحْيَةٍ	مَحْتَفِرَةٍ
عَظِيمَةٍ	لَكِنَّهَا		لَيْسَتْ	تَسَاوَى
كَمْ	قَرْيَةً	لِلنَّمْلِ	فِي	وَقَبَرِهِ
يَقْسَمُ	عَشْرُ	عَشْرِهَا		يَكْفِي
يَحْمِلُهَا	الْخَنْزِيرُ	إِذَا	يَبْصُرُهَا	مُنْتَشِرَةٍ
وَيَسْتَنْهِي	لَوْ أَنَّهُ		يَمْلِكُ	مِنْهَا شَعْرَهُ
قَدْ	نَبِثَتْ	فِي	وَجْهِهِ	فَوْقَ
بَارِدَةٍ	ثَقِيلَةٍ		مَظْلَمَةٍ	مُنْكَدِرَةٍ
كَأَنَّهَا	سَحَابَةٌ		فَوْقَ	الْبِلَادِ
مَا	كَانَ	قَطُّ	رَبُّهَا	مِنْ
قَدْ	تَرَكْتَ	حَامِلَهَا		الْكِرَامِ
إِذَا	خَطَّتْ	أَقْدَامُهَا		بِحَالٍ
وَلِإِنْ	مَشَى	رَأَيْتَ	فَوْقَ	الْأَرْضِ
أَطَوَّلَتْهَا	قَدْ	رُؤِيتَ	مِنْ	رَيْفَةٍ

وقد أتت خبيثةً مُتَنَنَّةً مستمذرة
 مضحكةً ما كان قد طُ. مثلها لمُسخره
 فلو مضى السوق بها وزفها بالجزمِره
 لحصلت له مع لُ ضيعةٍ موفره
 لخوفٍ من يبصرها للجوفِ منها قرقره

د - الشاعر الوصافي :

بستان المآرب

للهِ بستانى وما قضيتُ فيه من المآربِ
 لهنى على زمنى به والعيشُ مخضرُ الجوانبِ
 ولكم بَكَرْتُ له وقد بَكَرْتُ له أيدي السحابِ
 فيروقى والجوُّ من ساكنٌ ، والقطرُ ساكنٌ
 والطلُّ في أغصانه يحكى عقوداً في ترائب^(١)
 وتفتحت أزهاره فتأرجحت من كلِّ جانب^(٢)
 وبدأ على دوحاته ثمرٌ كأذنانِ الثعالبِ
 وكأثما آصاله ذهبٌ على الأوراقِ ذائبِ
 فهناك كم ذهبيةٍ لي في الولوعِ بها مذاهبِ

(١) الطل : الندى . الترائب : جمع تريبة وهي مقدم الصدر .

(٢) تأرجحت : تعطرت .

مسرّات ودور . . .

حبذا دورٌ على النير ل ، وكاساتٌ تدورُ
 ومسرّاتٌ تموجُ ال أرضٌ منها وتمورُ
 وقصورٌ ما لعيش نيلته فيها قصورُ
 كم بها قد مرّ لي أسـ تنفّرُ الله سرورُ
 كلّ عيشٍ غيرِ ذاك ال ميثُ في العالم زورُ
 منزل ليس على الأر ضٍ له عندي نظيرُ

راح ، وروح . . .

هبْ التسميم عليلا وهو التسميمُ الصّحيحُ
 وطاب وقتك فانفضّ فالآن طاب الصبوحُ^(١)
 ونخذ عن الكاسِ نوراً به يضيئُ الفسيحُ
 من قهقهة طاب منها طعمٌ ، ولونٌ ، وريحُ
 في دنّهما هي راح وفي الحشما هي روحُ
 يابن الكرام إلى كم على أذنت شحيحُ
 أذنت المعبّد قلبي وقلبك المستريحُ

(١) الصبوح : شراب الصباح وضده الغبوق .

رعى الله عهد مصر . . .

فرعى الله عهد مصر وحباً ما مَضَى لى بمصرَ من أوقات
 حينذا النيلُ والمراكبُ فيه مصعداتٍ بنا ومشحدرات
 وليالىً بالجزيرة والجبى زة فيما اشتهيتُ من لذاتٍ
 بين روض حكى ظهورَ الطواويرِ يس وجوً حكى بطونَ البزاةِ
 حيث مجرى الخليج كالحيّة الرقة طاء بين الرياض والجئات
 ونديم كما نحبُ ظريفٍ وعلى كل ما نحبُ موائى
 كل شىء أردته فهو فيه حسنُ الذات كاملُ الأدواتِ
 يا زمانى الذى مضى يا زمانى لك مِنى تواترُ الزفراتِ

يوم أغرّ . . .

في هذه القصيدة كان شاطئ النيل مجلساً للهو اليهاء زهير وصعبه الذين مثلوا ضرورياً مختلفة
 من الناس : فثم المسلمون ، وثم الأقباط . وثم الصالحون أرباب المحاريب ، وثم المساكين ،
 وأصحاب المواخير . . .

علا حسنُ النواعير وأصسوات الشحارير^(١)
 وقد طاب لنا الوقت صفوا من غير تكدير
 فقم يا ألفَ مولاي أدْرِها غيرَ مأمورٍ
 وخذها كالذنانير على رغمِ الدنانيرِ
 أدْرِها فى سنى الصبحِ تنوُّ نوراً على نورٍ

(١) الشحارير : جمع شحور ، طائر حسن الصوت .

عُقَارَا أَصْبَحْتُ مِثْلَ	هَبَاءٍ غَيْرِ مَشْهُورٍ ^(١)
بَدَتْ أَحْسَنَ مِنْ نَارٍ	رَأَتْهَا عَيْنٌ مَقْرُورٍ ^(٢)
تَزَلُّنَا شَاطِئُ النَّيْلِ	عَلَى بُسْطِ الْأَزَاهِيرِ
وَقَدْ أَضْحَى لَهُ بِالْمَوِّ	جِرَ وَجْهُ ذُو أَسَارِيرِ
تَسَابَقْنَا إِلَى اللّٰهُوِّ	وَوَافَيْنَا بِتَبْكَيرِ
وَفَيْنَا رَبُّ مَحْرَابٍ	وَفَيْنَا رَبُّ مَخْجُورِ
وَمِنْ قَوْمٍ مَسَائِيرِ	وَمِنْ قَوْمٍ مَسَاخِيرِ
وَمِنْ جِدٍّ ، وَمِنْ هَزْلِ	وَمِنْ حَقٍّ ، وَمِنْ زُورِ
فَطَوَّرَا فِي الْمَقَاصِيرِ	وَطَوَّرَا فِي الدَّمَاكِيرِ
وِإِخْوَانٍ كَمَا تَدْرِي	مِنْ الْقَبْطِ النُّجَارِيرِ ^(٣)
وَفِيهِمْ كُلُّ ذِي حَسَنِ	مِنْ الْإِحْسَانِ مَوْفُورِ
وَنَالِ لِلْمَزَامِيرِ	بِصَوْتِ كَالْمَزَامِيرِ ^(٤)
وَفِي تِلْكَ الْبِرَاتِيصِ	بِدَوْرٍ فِي دِيَاغِيرِ
وَجُوهٍ كَالْتَصَاوِيرِ	تَصَلَّى لِلتَّصَاوِيرِ
وَمِنْ تَحْتِ الزَّانِيرِ	خُصُورِ كَالزَّانِيرِ
أَتَيْنَاهُمْ فَمَا بَقُوا	وَلَا ضَبُّوا بِمَدْخُورِ
لَقَدْ مَرَّ لَنَا يَوْمٌ	مِنْ الْغُرِّ الْمَشَاهِيرِ

(١) العقار : الحمر .

(٢) المقرور : المصاب بالقر وهو البرد الشديد .

(٣) النجارير : جمع نجير وهو الخاذق الفطن الماقل .

(٤) المزامير الأولى : مجموعة أناشيد النبي داود . والمزامير الثانية : جمع مزموذ وهو

على ما خلطه من غيـ ر ميعادٍ وتقدير
فقل ما شئتَ من قولٍ وقدرٍ كلِّ تقديرٍ

نار ونور

هذا مجلس لمرور شامل ، يتحدث الجاهل فيه من الخمر وصنائعها ، ولطفها وفعلها في الشاربين ،
كما يتحدث عما كان بالجلس من الأتعار والرياحين ، والنداء والسائقين ، والمغنى وأثره في السامعين ،
ولطافه ولطفته وظرفه وخبرته ، والقصور المصادات للفائزات . . .

يومُنَا يومٌ مطيرٌ	ولنا كأسٌ تدورُ
ومُتَسَامٌ تحسبُ الأَر	ضَ بنا فيه تسيرُ
أَخَذتَ منا عقارُ	أَخَذتَ منه الدهورُ
لَطِفتَ بالذن حَتَّى	قِيلَ مرَّ : وضهيرُ
فَنيتَ إِلَّا يسيرُ	كُلُّهَا ذاكَ اليسيرُ
فَهِيَ في الكاساتِ نارُ	وهي في الأحشاءِ نورُ
وَكأنَّ الكأسَ حقُّ	وَكأنَّ الرِّاحَ زورُ
ومن الرُّبُحانِ والأَز	هَارَ غَضُّ ونضيرُ
ونَداءِ بهم العي	شَ كما قيلَ قصيرُ
وسقاةٌ مثلَ ما نَم	وي شَموسٌ ويدورُ
ومُعَنَّ هو فيما	يَحسَبُ الناسُ أميرُ
ما له فيما يدانيه	من الظرفِ نظيرُ
وهو إن شئتَ غَنِيٌّ	وهو إن شئتَ فقيرُ
وإذا غَنَى تموجُ الـ	أَرْضِ منه وتمورُ

وتغيب القوم في المجر ليس والقوم حضور
ولنا طاه نظيف وظريف ونخبير
وقدور همدت فيه على الجمر تفور
مجلس إن زرتنا فيه فقد تم السرور
كل ما تطلبه فيه ما يسبح وكثير

دعوة إلى مجلس هو . . .

رق في الجو النسيم فتفضل يا نديم
ما ترى كيف انمحت من حلّة الليل رقوم ؟
وكان الفجر نهر غرقت فيه النجوم
فاجل بالصهباء ليلاً بقيت منه رسوم
واسبق الشمس بشمس لا تواربها الغيوم
قهوة رقت فما في كأسها إلا نسيم^(١)
بنت كرم لم يفز قط (م) بها إلا الكريم
وهي طبتبها من سالف الدهر ختوم
لم تزل عند المجوسى (م) لها قدر عظيم
ولها الراهب في الدبر ر يصل ويصوم
وقليل كل ما يبط لب فيها ويسوم
ولقد طاف بها سا في رحيم ورحيم

(١) القهوة : الخمر .

بارعٌ في كل ما نط
 ونديمٌ وكما ن
 ليس يبدو منه ماته
 مطربٌ في صنعة الأل
 ولعمري إن تفضلاً
 لبٌ منه وتروم
 وى حبيبٌ وحميم
 تبٌ منه أو تلوم
 يحان والضربِ عليم
 بت فقد تمّ النعيم

صاح خذها وهاتها

هذه القصيدة ذات الوزن الخفيف ، واحدة من قصائد كثيرة للبهاء ، تصلح للتلحين والغناء ،
 وفيها يتحدث عن إلهو المهيأ للهو والشراب ، والخمر ونقائها وبهجتها للأعين والقلوب ، كما يدعو
 إلى رفع التكلف ، وإزالة الحواجز بين التذاني ، ويصف من هواء ، ويعرض عن عزل العاذلين :

هات يا صاح غنني
 قم بنا يا نديم نس
 أصبح الجو في ردا
 وتبدى الصباح كال
 صاح خذها وهاتها
 مت جدًا ولوعة
 من مدام كأنما
 فنهى نور ، وما عدا ال
 قهوة ذات بهجة
 قد أقامت ، وعد ما
 فإذا ما أردتها
 وارفع الشر بيننا
 وأمل الكأس واسقني
 بق أذان المودن
 من الغيم أدكن
 بشر في وجه محسن
 واجلها لي وزين
 فاسقنيها لعلني
 كاسها قلب مؤمن
 نور منها فقد فني
 في قلوب وأعين
 شئت في قعر مخزن
 سمها لي وسمني
 لا تفكر بأني

خَلَّيْتُ	مَنْ	تَصْنَعُ	لِللَّوْرِ	أَوْ	تَزِينُ
فَامْصِرْ	يَزِينُنِي	فَرَطُ	هَذَا	التَّسْنِينِ	
سَيِّدِي	بَعْدَ	ذَا	ذَا	قُلْ	لِي
لَكَ	مَا	شِئْتَ	مِنْ	رِضَاً	
لِي	حَبِيبُ	فَإِنْ	أَكُنْ		
إِنْ	يَوْمًا	بِزُورَتِي	يَوْمُ	عَيْدِ	مُزِينِ
هُوَ	بَدْرُ	الْمَجْتَلِ	هُوَ	غَصْنُ	الْمَجْتَنِي
هَازِلِي	فِيهِ	لَا	تُحِلُّ	أَنَا	عَنْ
لَسْتُ	أَصْغَى	وَلَا	أَعْي	عَنْ	خَلَّيْتُ

(هـ) الشاعر الوجداني :

حكاية حال

يصور الهماء في هذه القصيدة الأدوار التي مر بها ، فقد حكى هنا قصة حياته : ذكر عهد صباه ، ثم عهد شبابه ونشوته ، وما كان له فيه من طموح وأنس ، ثم خدمته الملك الصالح : وما كان يأخذ نفسه به من الأمانة والحفاظ على الحقوق ، ثم ما كان من حاله الزائدة المتطوية بعد أن ترك خدمة الملوك فوقف موقف المرشدين الواعظين ، أو المتلهفين على ماضيه في ذكريات أليمة وحزين ، وأخيراً تأعبه لقاء الله . . .

أَمَذَكْرِي	عَهْدَ	الصَّبَا	بَعْدَ	الْإِتَابَةِ	وَالرَّجُوعِ
أَذْكُرْتَنِي	أَشْيَاءَ	مِنْ	زَمَنِ	تَرَكْتُ	بِهَا
أَشْيَاءَ	ذَقْتُ	لِفَقْدِهَا	أَلَمَ	الْفِطَامِ	عَلَى
نَسَجْتُ	عَلَيْهَا	الْعَنْكَبُوتَ	تُ	وَعُودَرْتُ	بَيْنَ
وَإِذَا	تَقَاضَيْتِ	الْجَوَا	بَ	فَمَخَذَ	جَوَابَكَ

ذهبَ الجديدُ من الشبا
 وودتُ لو دام الخلي
 ولكم طابتُ إلى الرب
 وفضحتُ أزهارَ الربا
 وسهرتُ في ليلِ الصبا
 وطرقتُ بخدَرِ الكاعبِ الـ
 وسفرتُ للملكِ العظ
 وتركتُه في الأمرِ يند
 وبلغتُ ذاك ، ولم أكن
 ثم ارعويتُ وصرتُ في
 فزهدتُ في هذا وذا
 فإليك عني يا ندي
 ما أنتَ من ذاك الطرا
 أنريدُ بعدَ الشيبِ مني (م) صبوةً الناشئِ الخلي
 لا ، لا وحقُّ الله ما
 إن كنتَ ترجعُ أنتَ به
 كيف الرجوعُ وقد وأب
 عارُ رجوعك بعد ما
 وحللتُ في ظلِّ الجنا
 وأعلمُ أخى بأنّه

ب فكيف ظنك بالخلي
 ع ، فهل إليه من شفيع ؟
 ح بفتية مثل الربيع
 ض بحسن أزهارِ البديع
 سهرًا ألدَّ من الهجوع
 حسناء والخود الشموع^(١)
 يم الشأن والقدر الرفيع
 فذ في الشريف وفي الوضع
 فيه لحق بالمضيع
 حد السكينة والخشوع
 فقل السلام على الجميع
 م فما صنيعة من صنيعي
 ز ، ولا من البر الرفيع
 (م) صبوة الناشئ الخلي
 أنا بالسميع ولا المطيع
 ل الشيب ، فما بأس من رجوعي
 ت الرياح تلعب بالزروع
 عايدت حيطان الربوع
 ب الرحب ، والحرز المنيع
 لا بالسجود ولا الركوع

(١) الشموع في النساء : المزاينة الفحوى اللعوب .

فهناك كم كرم ، وكم لطف ، وكم بر منيع
احسب حسابك في الذي تنويه من قبل الشروع
واجعل حديثك في النزول مقدماً قبل الطلوع

فيا مؤنسي - لا فرق الله بيننا

بروحى من قد زارنى وهو خائف
وما زار إلا طارفاً بعد هجرة
فلم أرَ بداراً قبله بات خائفاً
وكنت أظن الحسن قد خضع وجهه
فدبت حبيباً زارنى متفضلاً
وما كثرت منى إليه رسائل
رأى عليلاً فى هواه فعادنى
فمت كمداً يا حاسدى ؛ فأنا الذى
ولى واحداً ما لى من الناس غيره
فيا مؤنسي ، لا فرق الله بيننا
ويا زائراً قد زار من غير موعد

كما اهتز عَصْنٌ فى الأراكَةِ مائداً (١)
وقد قامَ واشٍ يتنقيه وحاسداً
فهل كان يخشى أن تغار الفرائداً ؟
وما هو إلا قائمٌ فيه قاعد
وليس على ذاك التفضل زائداً (٢)
ولا هطلت بالوصل منه مَواعد
حبيبٌ له بالمكرُماتِ عوائد (٣)
له صِلَةٌ ممَّنْ يُحبُّ وعائد
أرى أنه الدنيا ، وإن قلتَ واحد
ولا أقفرت للأنس منا معاهد
وحقك إني شاكرٌ لك حامداً

(١) المائدة : المائل .

(٢) الفرائد : النجوم .

(٣) عاد المريض : زاره .

أنتم الناس أيها العشاق !

هكذا يتسامى اليها بالحب ، ويسمو بالعشاق ، فالحب أخلاق الكرام ، والعشاق صفة هم
الناس . . .

حُرِّمَتْ عَيْنِي	مَنَامِي	فَعَلَى الطَّيِّفِ	سَلَامِي
لَسْتُ أَرْضِي	مِنْ حَبِيبٍ	بِوِصَالٍ	فِي الْمَنَامِ
أَنَا يَقْظَانُ	أَرَاهُ	فِي قُعُودِي	، وَقَبَائِي
عَنْ يَمِينِي	، وَبِسْمَارِي	وَوَرَائِي	، وَأَمَامِي
وَهُوَ فِي مَرِي	، وَجَهْرِي	وَمَكُونِي	، وَكَلَامِي
وَهُوَ رِيحَانِي	وَرُوحِي	وَنَدِيمِي	، وَمُنْدَامِي ^(١)
أَيُّهَا اللَّائِمُ	فِيهِ	لَا تَقْصُرْ	فِي مَلَامِي
فَمَتَى كَرَّرْتَ	ذِكْرَا	هَ يَزِدُّ	فِيهِ غَوَامِي
لَا مَ فِي الْحَبِّ	أَنَاسُ	وَهُوَ أَخْلَاقُ	الْكَرَامِ
مَا أَرَى النَّاسَ	سِوَى الْعَشَّةِ	إِقِ مِنْ كُلِّ	الْأَنَامِ

قلبي عندك

سَيِّدِي قَلْبِي	عِنْدَكَ	سَيِّدِي أَوْحَشَيْتَ	عَبْدَكَ
سَيِّدِي قَل لِي	وَحْدْتُ	نِي مَتَى تُنَجِّزُ	وَعْدَكَ ؟
أَتَرَى تَذَكَّرُ	عَهْدِي	مِثْلَ مَا أَذْكُرُ	عَهْدَكَ
أَمْ نَرَى تَحْفَظُ	وُدِّي	مِثْلَ مَا أَحْفَظُ	وُدَّكَ

(١) المدام : الحمر .

فَمِ بِنَا إِنْ شِئْتَ عِنْدِي أَوْ أَكُنْ إِنْ شِئْتَ عِنْدَكَ
أَنَا فِي دَارِي وَحْدِي فَتَفْضِلْ أَزْتَ وَحْدَكَ

كُنْ لِي وَحْدِي

مَوْلَايَ كُنْ لِي وَحْدِي فَلِإِنِّي لَكَ وَحْدَكَ
وَكُنْ بِقَلْبِكَ عِنْدِي فَإِنَّ قَلْبِي عِنْدَكَ
لِي فِيكَ قَصْدٌ جَمِيلٌ لَا خَيْبَ اللَّهُ قَصْدَكَ
حَاشَاكَ تَوَثَّرُ بَعْدِي وَلَمْ تَتَوَثَّرْ بَعْدَكَ
إِنْ تَنَسَّ عَهْدِي إِنْئِي وَاللَّهِ لَمْ أَنَسْ عَهْدَكَ
أَضَعْتَ وَدَّ مُجِيبٌ مَا زَالَ يَحْفَظُ وَدَّكَ
مَوْلَايَ ، إِنْ غَبْتَ عَنِّي وَاسُوءَ حَالِي بَعْدَكَ

ثُورَةٌ

وفي روح خفيفة ، وفي ثُورَة عنيقة ، وفي لغة مصرية عربية يقول الجاهل :

نَرَاكُمْ قَدْ بَدَا مِنْكُمْ أَمْـوَرٌ مَا عَهْدُهَا
وَعَرَضْتُمْ بِأَقْوَالٍ وَمَا نَجَهَلُ مَعْنَاهَا
كَشَفْتُمْ بَيْنَنَا أَشْيَا وَقَدْ كُنَّا مَسْرُوعَاهَا
وَطَرَقْتُمْ إِلَى الْغَدْرِ طَرِيقاً مَا سَلَكْنَاهَا
وَقَبَّحْتُمْ بِأَسْمَاءِ وَحَسَنْتُمْ مَسْمَاهَا
وَكَمْ جَاءَتْ لَنَا عَنْكُمْ أَحَادِيثُ رَدُّنَاهَا

وَأَشْيَاءَ	رَأَيْنَاهَا	وَقُلْنَا مَا	رَأَيْنَاهَا
فَلَا وَاللَّهِ مَا يَحْمَدُ		نُ بَيْنَ النَّاسِ ذِكْرَهَا	
قَرَأْنَا سُورَةَ السُّلُوكِ		نِ عَنْكُمْ بَلْ حَفِظْنَاهَا	
وَمَا زِلْتُمْ بِنَا حَتَّى		جَسَرْنَا ، وَفَعَلْنَاهَا	
فَرَجُلٌ تَطْلُبُ الْمَسْعَى		إِلَيْكُمْ قَدْ مَنَعْنَاهَا	
وَعَيْنٌ تَتَمَنَّى أَنْ		تَرَائِكُمْ قَدْ غَضَضْنَاهَا	
وَنَفْسٌ كُلَّمَا اشْتَاقتْ		لِللُّقْيَاكُمْ زَجَرْنَاهَا	
وَكَانَتْ بَيْنَنَا طَاقٌ		فَهَا نَحْنُ سَدَدْنَاهَا	
وَلَوْ أَنْكُمْ جُنَّا		تُ عَدْنُ مَا دَخَلْنَاهَا	
وَأَمَّا الْحَالَةُ الْآخَرَى		فَإِنَّا قَدْ سَلَوْنَاهَا	
وَقَدْ مَاتَتْ وَصَلَيْنَا		عَلَيْهَا وَدَفْنَاهَا	
هَجَرْنَا ذِكْرَهَا حَتَّى		كَانَا مَا عَرَفْنَاهَا	
وَهَا نَحْنُ ، وَهَا أَنْتُمْ		مَتَى قَطُّ ذَكَّرْنَاهَا	
وَلَا النَّفْسُ بَقَايَا مِنْ		أَحَادِيثِ خَبْرَانَاهَا	
فَلَوْ أَرْضَيْتُكُمْ الْأَرَا		حُ مِنْهَا لَبَدَلْنَاهَا	

غضب

غضب الحبيب على البهاء . . . فقال هذه الأبيات يتغزل ، ويتودد ، وقد مضى على الغضب
ليلتان . . .

يا قضييماً من لُجَيْنٍ	يا مليحاً	المُفْلَتَيْنِ
كلُّ ما يرضيك عندي	فعلى رأسى	وعينى
ما لقلبي منك يا به	رُ سوى خُصِّي	حُنينٍ ^(١)
ويرى الحساد أننى	منك ملآن	اليدين
يا مليحاً أنا مِنْهُ	بين هُجران	وبين ^(٢)
إن تبدى أو نوى	يا لها من	فِتْنَتَيْنِ
فهو من قبل ومن به	لُ مليحاً	الطُّلَعَتَيْنِ
هو بدرٌ قد تجلّى	نوره فى	الشرقتين
وكتابٌ سَطَّرَ الحسد	نُ به فى	صفحتين
أين من يكسب أجراً	بين من أهوى	وبينى؟
راح غضبانَ فما كلم	فى مذ	ليتين

ما أنا فى شىء سوى الحب خاضع

ولعل حبيبته قد تهادى فى الصدود ، فزاد فى غيبته حتى صارت أربعة أيام فسهل البهاء خواطره
فى هذه الأبيات . . .

حبيبى على الدنيا إذا غبت وحشةً فيا قمرى قل لى : متى أنت طالعُ
لقد فنيت روى عليك صَبَابَةٌ فما أنت يا روى العريزة صانعُ

(١) عاد بجنح حنين : مثل يضرب للخبية والإخفاق .

(٢) البين : البعد .

سرورى أَن تبتى بخيرٍ ونعمة
فما الحبُّ إن أخلصته لك باطلٌ
وغيرك إن وافى فما أنا ناظرٌ
كأنى موسى حين ألقته أمه
أظنُّ حبيبي حالَ عما عهدته
فقد راحَ غضباناً ولى ما رأيته
أرى قصده أن يقطع الوصل بيننا
وإني على هذا الجفاء لصابرٌ
فإن تتفضلُ بامرئى فقل له
فوالله ما ابتلت لقلبي غلةٌ
تذللْتُ حتى رقى لى قلبُ حاسدى
فلا تنكروا منى خضوعاً عهدتُم

وأنى من الدنيا بذلك قانعٌ
ولا الدمعُ إن أفنيتهُ فيك ضائعٌ
إليه ، وإن نادى فما أنا سامعٌ
وقد حرمتُ قدماً عليه المراضعُ
ولاً فما عذرٌ عن الوصل مانعٌ
ثلاثة أيام ، وذا اليوم رابعٌ
وقد سلَّ سيفَ اللحظ. والسيفُ قاطعٌ
لعلَّ حبيبي بالرضا لى راجعٌ
محبك فى ضيقٍ وحلمك واسعٌ
ولا نشفت منى عليه المدامعُ
وعاد عذولى فى الهوى وهو شافعُ
فما أنا فى شىء سوى الحب خاضعُ

الله يحفظ قلبي والذي فيه

ويطول المجران ، ويرمل الهباء ويولا يبتغيه وسيلةً بينه وبين الحبيب الغضبان . . .

أقرأ سلاى على من لا أسميه
ومن أعرض عنه حين أذكره
أشرب ذكرى فى ضمن الحديث له
واسأله إن كان يرخصه ضنى جسدى
فليت عين حبيبي فى البعاد ترى
هل كنت من قوم موسى فى محبته

ومن برؤى من الأشواء أفديه
فإن ذكرتُ سواه كنت أعنيه
إن الإشارة فى معنأى تكفيه
فحبذا كل شىء كان يرخصه
حالى وما بى من ضرٍّ أقاسيه
حتى أطلَّ عذابى منه بالنيه

أَحْبَبْتُ كُلَّ سَمِيٍّ فِي الْأَنَامِ لَهُ
يَغِيبُ عَنِّي وَأَفْكَارِي تَمُتُّهُ
لَا ضَمِيمَ يَخْشَاهُ قَلْبِي وَالْحَبِيبُ بِهِ
مِنْ مِثْلٍ قَلْبِي ؟ أَوْ مَنْ مِثْلُ سَاكِنِهِ
يَا أَحْسَنَ النَّاسِ يَا مَنْ لَا أَبْوَحُ بِهِ
قَدْ أَتَعَسَ اللَّهُ عَيْنًا صَهْرَتَ تَوَحُّشِهَا
مَوْلَايَ ، أَصْبَحَ وَجْدِي فِيكَ مُتَهَرِّجًا
وَصَارَ ذِكْرِي لِلْوَأْسَى بِهِ وَلَعُ
فَمَنْ أَذَاعَ حَدِيثًا كُنْتُ أَكْثَمَهُ
فِيَا رَسُولِي تَضَرَّعْ فِي السُّؤَالِ لَهُ
إِذَا سَأَلْتَ فَسَلْ مَنْ فِيهِ مَكْرَمَةٌ

وَكُلُّ مَنْ فِيهِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ
حَتَّى يُخَيَّلَ لِي أَنِّي أَنَا جِيهِ
فَلِإِنَّ سَاكِنَ ذَلِكَ الْبَيْتِ يَحْمِيهِ
اللَّهُ يَحْفَظُ قَلْبِي وَالَّذِي فِيهِ
يَا مَنْ تَجَنَّى ، وَمَا أَحَلَّنِي تَجَنُّيهِ !
وَأَسْعَدَ اللَّهُ قَلْبًا صَهْرَتَ نَأْوِيهِ
فَكَيْفَ أَمْتَرُهُ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْفِيهِ ؟
لَقَدْ تَكَلَّفْتُ أَمْرًا لَسْتُ تَعْنِيهِ
حَتَّى وَجَدْتُ نَسِيمَ الرُّؤُوسِ يَرْوِيهِ
عَسَاكَ تَعْطِفُهُ نَحْوِي وَتَنْشِيهِ
لَا تَطْلُبِ الْمَاءَ إِلَّا مِنْ مَجَارِيهِ

وصال

وينجح الرسول في استرضاء الحبيب ، فيكون لقاء بعد هجر ، وصال بعد غضب ، ويقول الهواه
في مصرية خفيفة :

سمع الناس ، وقلنا	وافتنصحننا ، واسترحنا
بت والبدر ندعى	ففعلنا وتركنا
بات يدعو التصابي	فسمعنا ، وأطعنا
وجعلناه يقيننا	بعد ما قد كان ظنا
شكر الله لمن بش	ر بالوصل وهنا
لي حبيب لي منه	كل شيء أتمنى

فهو بذُرُّ يتجلى وهو عُصْنٌ يثنى
 كان غضباناً فلما أن تلاقينا اصطَلَحنا
 يتجنى ، ولعمري حقه أن يتجنى
 جمع الحسن وفيه غيرُ ذاك الحسنِ معنى
 من له مثلُ حبيبي قد حوى حُسناً وحُسنى
 هاتِ حديثي : وقلْ لي ما على العاذلِ مِنَّا
 نحنُ لا نسألُ عنه ما له يُسألُ عنا ؟ ١٩

قبيل الرحيل عن مصر

أأرحلُ عن مصرٍ ، وطيبِ نعيمها
 وأترك أوطاناً ثراها لناثق
 وكيف وقد أضحت من الحسنِ جنة
 بلاد ثروق العين والقلب بهجة
 وإخوانُ صدقٍ يجمع الفضلُ شملهم
 أسكانَ مصرٍ ، إن قضى الله بالنوى
 فلا تذكروها للنسيم ، فإنه
 إلى كم جفوني بالدموع قريحة
 فني كلُّ يومٍ لي حنين مجدّد
 ستأني من الأيامِ أعظمُ فرقة
 وأيُّ مكانٍ بعدها لي شائق
 هو الطيبُ لا ما ضُمَّنته المفارق^(١)
 ذرايبُها مبهوثةٌ والهارقُ ؟
 وتجمع ما يهوى ثقي وفاسق
 مجالسُهم مما حوّه حدائق
 فتمَّ عهودُ بيننا ومواقفُ
 لأمثالها من نفحةِ الروضِ سارق
 وحشامٍ قلبي بالتفرُّق خافق
 وفي كل أرضٍ لي حبيب مفارق
 فما لي أسعى نحوها وأسبق ؟

(١) المفارق : جمع مفرق ، كناية عن الرأس .

ومن خلقتني ألى ألوف ، وأنه
يعحرك وجدى فى الأراكة طائر
وأقسم ما فارقت فى الأرض منزلاً
وعندى من الآداب فى البعد مؤنس
يطول التفانى للذين أفاق
ويبعث شجوى فى الدجنة بارق^(١)
ويذكر إلا والدموع سوابق
أفاق أوطاني ، وليس يفارق

عسى الله يطوى شقة البعد

سقى وادياً بين العريش وبرقة
وحياً النسيم الرطب عني إذا سرى
بلاد متى ما جئت بها. جشت جنة
تمثل لى الأشواق. أن ترابها
فيا ساكني. مصر ، تراكم علمهم
وما فى فؤادى موضع لسواكم
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا
على لذك اليوم صوم نذرته
من الغيث هطال الشآبيب هتان^(٢)
هنالك أوطاناً إذا قيل أوطان^(٣)
لعينك منها كل ما شئت رضوان
وحصباها مسك يفوح وعقبان^(٤)
بأني ما لى عنكم الدهر سلوان^(٥)
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن؟
فتهدأ أحشاء ، وترقأ أجفان^(٦)
وعندى على رأى التصوف شكران

(١) الدجنة : الليل .

(٢) الشآبيب : جمع شقوب : الدفعة من المطر . الهتان : الغزير المختص .

(٣) سرى : سار وأصله سار ليلا .

(٤) عقبان : ذهب خالص .

(٥) سلوان : نسيان .

(٦) ترقأ أجفان : تجف من السمع .

أتمضي أنت منفرداً وأبقى ؟

يَعزُّ عليَّ فقسدُك يا عليَّ
تكدَّرَ فيك صافي العيش لَمَّا
لشئ أخليتُ منك محلَّ أنسي
فبعدك ليس يُقرِّحُنِي بشيرُ
ولو كان الرَّدَى بشراً سوياً
عصائي الصبرُ بعدك وهو طَوْعِي
وهل أبقتُ لي الأيامُ دمعاً
فيا جزعى تعزُّ فليس صبر
أتمضي أنتَ منفرداً وأبقى
وهل حقُّ حياتك يا زهير ؟
وحقاً صار ذاك البحرُ يَبْساً
وأقلع ذلك الغيثُ المرجى
لقد طوت الحوادثُ منه جسماً
مضوا بسريره وعليه نورُ
وفي أكفانه ندب سرِّي
على حين استعاض الذكرُ منه

ألا لله ذا الأجلُ الوحي^(١)
عدمُك أيها الخِلُ الصَّفيُّ
فما أنا فيك من أسفِ خَلِي
وبعدك ليس يحزنُنِي نعي
لهابك أيها البشرُ السَّويُّ
وطاوع بعدك الدمعُ العَصِي
فيسعدُنِي به الجفنُ الشَّقِيُّ
ويا ظمئِي تسَلُّ فليس رِي
لقد غدرك نفسك يا وفي ؟
وهل حقُّ وفاتك يا علي ؟
وصوح ذلك الروضُ النَّدِيُّ
فلا الوسميُّ منه ولا الوليُّ^(٢)
وليس لذكره في الناس طي
بجَلِي تحتَه سرُّ خَفِي
تخلفَ بعده ذكرُ سَنِي^(٣)
وحين آتَى كما اندفع الآتي^(٤)

(١) الوحي : السريخ .

(٢) الوحي : أولُ مطر الربيع .

(٣) السني : المرفوع .

(٤) الآتي : السيل الذي لا يدرك .

وكم درت مكارمه لعاف كما درت لأطفال قدي
وكم أروى على ظمير نداه سقاه هاطل الغيث الروى

هنيئاً له قد طاب حياً وميتاً

عليك سلامُ الله يا قَبرَ عثمانٍ وحيّاك عني كلُّ رَوحٍ وريحانٍ
ولا زال منهلاً على تُربِكَ الحيا يغادريك منه كلُّ أوطفِ هتانٍ (١)
لقد نَحْنُته في الودِّ أن عشتُ بعده وما كنت في ودِّ الصديقِ بخوانٍ
وعهدى بصبري في الخطوبِ يطبعني فما لي أراه اليومَ أظهرَ عصيانٍ
فيا ثاوياً قد طيبَ الله ذكره فأضحى وطيبُ الذِّكرِ عمرٌ له ثاني
وجدتَ الذي أسلاكَ عني ، وإنني وحققك ما حدثتُ نفسي بسلوانٍ
وعوّضتَ عن دارٍ بأُكنافِ جنةٍ وعوّضتَ عن أهلٍ بحورٍ وولدانٍ
فديتَ الذي في حبه اتَّفَقَ الوري فلو سئلوا لم يختلفَ فيه إثنانٍ
لقد دفنَ الأقوامُ يومَ وفاته بقيّةَ معروفٍ وخيرٍ وإحسانٍ
وواروه ، والذكرى تمثّلُ شخصه كأنهم واروه ما بين أجفانٍ
بواجهتي في كلِّ وقتٍ خياله كما كنت ألقاه قدماً ويلقائي
وأحسبُ لو ناديتُهُ وهو ميت لجأوبني تحتَ الشرابِ ، وناداني
هنيئاً له قد طاب حياً وميتاً فما كان محتاجاً لتطبيبِ أكفانٍ
صديقِ الذي مذ مات ماتت مسرّي فما لي لا أبكيه والرزقُ رزانٍ
وكان أنيسي مذ بليتُ بغربةٍ وكنتُ كائنٍ بين أهلي وأوطاني

وقد كان أُمّلائي عن الناس كلهم
 كريمُ المحيّا ، باسمُ متهلِّلُ
 يَعمُنُ لمن يرجوه من غيرِ مِنّةٍ
 فقدتُ حبيباً ، وابتليتُ بغربةٍ
 وما كنتُ عنه أملك الصبرَ ساعةً
 هو الموتُ ما فيه وفاءٌ لصاحبٍ
 كذلك ما زال الزمانُ وأهلُه
 وما الناسُ إلّا راحلٌ بعد راحلٍ
 وإلّا فأين الناسُ من عهدِ آدمٍ

ولا أحدٌ عنه من الناسِ أُمّلائي
 متى جئتُه لم تلقه غيرَ جذلانٍ
 فإن قلتَ منانٌ فقل غيرَ منانٍ^(١)
 وحسبك من هذين أمرانِ مُرانٍ
 فما صار أفساسي عليه وألهائي
 وهيهاتَ إنسانٌ يموتُ لإنسانٍ
 فمن قَبْلنا كمُ قد تَفَرَّقَ إلفانٍ
 إلى العالمِ الباقي من العالمِ الفاني
 ومن عهدِ نوحٍ ثمّ منه إلى الآنِ

المراجع

- | | |
|--------------------|--|
| ابن الأثير | : المثل السائر . |
| أحمد بلحى | : الحياة الأدبية في العصور الصليبية . |
| البهاء زهير | : الديوان . |
| ابن تغرى بردى | : النجوم الزاهرة . |
| ابن جبير | : الرحلة . |
| جلال الدين السيوطى | : حسن المحاضرة . |
| جورجى زيدان | : تاريخ مصر الحديثة . |
| ابن حجة الحموى | : خزانة الأدب . |
| ابن خلكان | : وفيات الأعيان . |
| أبو شامة | : الروضتين . |
| | : ذيل الروضتين . |
| شوقى ضيف | : الفن ومذاهبه في الشعر العربى . |
| عبد اللطيف حمزة | : الحركة الفكرية في مصر . |
| على مبارك | : الخطط التوفيقية . |
| ابن العماد الحنبلى | : شذرات الذهب . |
| غوستاف لوبون | : حضارة العرب (ترجمة عادل زعير) . |
| أبو الفداء | : المختصر في أخبار البشر . |
| القلقشندي | : صبح الأعشى . |
| ابن كثير | : البداية والنهاية . |
| مصطفى عبد الرازق | : بحث في البهاء زهير . |
| | : إغاثة الأمة بكشف الغمة . |
| المقرئى | : السلوك لمعرفة دول الملوك . |
| | : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . |
| ابن واصل | : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . |
| ياقوت | : معجم البلدان . |

الفصل الثالث

جوانب البهاء زهير

صفحة	
٣٨	١ - البهاء زهير الكاتب
٣٩	٢ - البهاء زهير الشاعر
٣٩	أ - ديوانه
٤٠	ب - طريقته
٤١	ج - المديح في شعره
٤٢	د - معانيه الطريفة
٤٢	هـ - رحلة قصائده
٤٤	و - أوزانه
٤٤	ز - أغراض شعره
٤٥	١ - الفزل
٤٩	٢ - المديح
٥٤	٣ - المحامد
٥٤	٤ - الفخر
٥٥	٥ - الوصف
٥٦	٦ - للشوق والحزن
٥٧	٧ - الرثاء
٥٩	٨ - متفرقات : (للشيب والنصح والإرشاد والتصوف)
٦٠	ح - شعره صورة لحياته
٦٣	ط - شعره صورة لعصره
٦٤	٣ - منزلته
٦٥	٤ - تأثيره
٦٦	٥ - تأثيره
٦٧	٦ - روحه المصرية

الفصل الرابع
منتخبات من آثار البهاء زهير

صفحة	
٧٢	١ - البهاء زهير - الكاتب
٧٣	رسالة ملك الفرنجة
٧٤	جواب السلطان
٧٥	٢ - البهاء زهير الشاعر
٧٥	أ - الشاعر القوي
٧٥	كفى الله دمياط المكاره
٧٨	يروى القنا بدم الأعداء
٨١	يا أسى
٨٢	يا طول شوق وحزين
٨٢	ب - الشاعر الاجتماعي
٨٢	مناقب شبي
٨٤	يولي المنايا والمنى
٨٥	جناب فيه للمجد مرتقى
٨٧	بعض هباته المفاخر والمآثر والعلا
٩٠	والله ما زالت دمشق مليحة
٩٣	ج - الشاعر الهجاء
٩٣	أقبح من وعد بلا وفاء
٩٣	ثقل
٩٤	حق منافقون
٩٥	كلامك والدولاب
٩٥	كيف لي منك خلاص
٩٦	هو في المجلس قدم
٩٦	غاب عنا ففرحنا
٩٦	لا حسن ولا حسنى
٩٦	خال من العقل
٩٧	تبا لها من حية

صفحة

٩٨	د - الشاعر الوصاف
٩٨	بستان المآرب
٩٩	سمرات ودور
٩٩	راح وروح
١٠٠	رعى الله عهد مصر
١٠٠	يوم أغر
١٠٢	زار وفور
١٠٣	دعوة إلى مجلس لحو
١٠٤	صاح عبقها وماتها
١٠٥	هـ - الشاعر الوجداني
١٠٥	سكاية حال
١٠٧	فيماؤنسي
١٠٨	أنتم الناس أيها العشاق
١٠٨	قلبي عنك
١٠٩	كن لي وحنى
١٠٩	ثورة
١١١	غضب
١١١	ما أنا في شيء
١١٢	الله يحفظ قلبي
١١٣	وصال
١١٤	قبيل الرحيل عن مصر
١١٥	صلى الله يطوى شقة البعد
١١٦	أتمنى أنت منفرداً وأبقى
١١٧	هنيئاً له
١١٩	المراجع

